

مصطفى محمود

الإسلام...
ما هو...؟

الدين ... ما هو؟؟

الدين ليس حرفة ولا يصلح لأن يكون حرفة .
ولا توجد في الإسلام وظيفة اسمها رجل دين .
ومجموعة الشعائر والمناسك التي يؤديها المسلم يمكن أن تؤدي
في روتينية مكررة فاترة خالية من الشعور ، فلا تكون من الدين
في شيء .

وليس عندنا زى اسمه زى إسلامي .. والجلباب والسروال
والشمروخ واللحية أعراف وعادات يشترك فيها المسلم والبوذي
والمجوسى والدرزى .. ومطربو الديسكو والهيبى لحاهم أطول ..
وأن يكون اسمك محمدًا أو عليًا أو عثمان ، لا يكفي لتكون
مسلمًا .

وديانتك على البطاقة هي الأخرى مجرد كلمة .
والسبحة والتمتمة والحممة ، وسمت الدراويش وتهليلة

المشايخ أحياناً يباشرها الممثلون بإجادة أكثر من أصحابها .
والرايات واللافتات والمجامر والمباخر والجماعات الدينية
أحياناً يختفى وراءها التآمر والمكر السياسى والفتن والثورات
التي لا تمت إلى الدين بسبب .

ما الدين إذن ... !؟

الدين حالة قلبية .. شعور .. إحساس باطنى بالغيب ..
وإدراك مبهم ، لكن مع إبهامه شديد الوضوح بأن هناك قوة خفية
حكيمة مهيمنة علياً تدبر كل شيء .

إحساس تام قاهر بأن هناك "داتاً" عتيماً .. وإن لم تملك تسليماً
ملك .. وأنه لا مهرب لظالم ولا إفلات منجرم .. وأنت حر
مستول لم تولد عبثاً ولا تحيا سدى وأن موتك ليس نهايتك ..
وإنما سيعبر بك إلى حيث لا تعلم .. إلى غيب من حيث جنت
من غيب .. والوجود مستمر .

وهذا الإحساس يورث الرهبة والتقوى والورع ، ويدفع إلى
مراجعة النفس ومحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئاً ذا قيمة
ويصوغ من نفسه وجوداً أرقى وأرفعى كل لحظة متحسباً لليوم
الذى يلاقى فيه ذلك الملك العظيم .. مالك الملك .

هذه الأزمة الوجودية المتجددة والمعاناة الخلاقة المبدعة
والشعور المتصل بالحضور أبداً منذ قبل الميلاد إلى ما بعد
الموت .. والإحساس بالمسئولية والشعور بالحكمة والجمال

والنظام والجدية فى كل شيء .. هو حقيقة الدين .
إنما تأتى العبادات والطاعات بعد ذلك شواهد على هذه الحالة
القلبية .. لكن الحالة القلبية هى الأصل .. وهى عين الدين وكفه
وجوهره .

وينزل القرآن للتعريف بهذا الملك العظيم .. ملك الملوك ..
وبأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله وآياته ووحدانيته .
ويأتى محمد عليه الصلاة والسلام ليعطى المثال والقدوة .
وذلك لتوثيق الأمر وتتمام الكلمة .

وإن كان يظل الإحساس بالغيب هو روح العبادة وجوهر
الأحكام والشرائع ، وبدونه لا تعنى الصلاة ولا تعنى الزكاة
شيئاً .

ولقد أعطى محمد عليه الصلاة والسلام القدوة والمثال للمسلم
الكامل ، كما أعطى المثال للحكم الإسلامى والمجتمع
الإسلامى .. لكن محمداً عليه الصلاة والسلام وصحبه كانوا
مسلمين فى مجتمع قريش الكافر .. فبيئة الكفر . ومناخ الكفر
لم يمنع أياً منهم من أن يكون مسلماً تام الإسلام .

وعلى المؤمن أن يدعو إلى الإيمان ، ولكن لا يضره ألا يستمع
أحد ، ولا يضره أن يكفر من حوله ، فهو يستطيع أن يكون
مؤمناً فى أى نظام وفى أى بيئة .. لأن الإيمان حالة قلبية ، والدين
شعور وليس مظهرة ، والمبصر يستطيع أن يباشر الإبصار ولو

كان كل الموجودين عمياناً ، فالإبصار ملكة لا تتأثر بعمى
الموجودين ، كما أن الإحساس بالغيب ملكة لا تتأثر بغفلة
الغافين ولو كثروا بل سوف تكون كثرتهم زيادة في ميزانها يوم
الحساب .

إن العمدة في مسألة الدين والتدين هي الحالة القلبية .
ماذا يشغل القلب .. وماذا يجول بالخواطر ؟
وبم تتعلق الهمة ؟

وما الحب الغالب على المشاعر ؟

ولأى شيء الأفضلية القصوى ؟

وماذا يختار القلب في اللحظة الحاسمة ؟

وإلى أى كفة يميل الهوى ؟

تلك هي المؤشرات التي سوف تدل على الدين من عدمه ..
وهي أكثر دلالة من الصلاة الشكلية ، ولهذا قال القرآن .. ولذكر
الله أكبر .. أى أن الذكر أكبر من الصلاة .. برغم أهمية
الصلاة .

ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام لصحابته عن
أبي بكر .. إنه لا يفضلكم بصوم أو بصلاة ولكن بشيء وقر في
قلبه .

وبهذا الشيء الذي وقر في قلب كل منا سوف نتفاضل يوم
القيامة بأكثر مما نتفاضل بصلاة أو صيام .

إنما تكون الصلاة صلاة بسبب هذا الشيء الذي في القلب .
وإنما تكتسب الصلاة أهميتها القصوى في قدرتها على تصفيه
القلب وجمع الهمة وتحشيد الفكر وتركيز المشاعر .

وكثرة الصلاة تفتح هذه العين الداخلية وتوسع هذا النهر
الباطني ، وهي الجمعية الوجودية مع الله التي تعبر عن الدين
بأكثر مما يعبر أى فعل .

وهي رسم الإسلام الذي يرسمه الجسم على الأرض ،
سجوداً ، وركوعاً وخشوعاً وابتهاًلاً ، وفناء .. يقول رب العالمين
لنبيه :

﴿ اسجد واقترب ﴾ .

وبسجود القلب يتجسد المعنى الباطني العميق للدين ، وتنعقد
الصلة بأوثق ما تكون بين العبد والرب .

وبالحس الديني ، يشهد القلب الفعل الإلهي في كل شيء ..
في المطر والجفاف ، في الهزيمة والنصر ، في الصحة والمرض ، في
الفقر والغنى ، في الفرج والضيق .. وعلى اتساع التاريخ يرى الله
في تقلب الأحداث وتداول المقادير .

وعلى اتساع الكون يرى الله في النظام والتناسق والجمال ،
كما يراه في الكوارث التي تنفجر فيها النجوم وتتلاشى في الفضاء
البعيد .

وفي خصوصية النفس يراه فيما يتعاقب على النفس من بسط

ولا نجد غير الكدح كلمة تعبر عن هذه المعاناة الوجودية
الخلاقة ، والجهد النفسى صعدا إلى الله .
هذا هو الدين .. وهو أكبر بكثير من أن يكون حرفة
أو وظيفة أو بطاقة أو مؤسسة أو زيا رسميا .

وقبض ، وأمل وحلم ، وفيما يلقي فى القلب من خواطر
وواردات .. حتى لتكاد تتحول حياة العابد إلى حوار هامس بينه
وبين ربه طول الوقت ..
حوار بدون كلمات ..

لأن كل حدث يجرى حوله هو كلمة إلهية وعبرة ربانية ،
وكل خبر مشيئة ، وكل جديد هو سابقة فى علم الله القديم .
وهذا الفهم للمشيئة لا يرى فيه المسلم تعطيلاً لحرية ، بل
يرى فيه امتداداً لهذه الحرية .. فقد أصبح يختار بربه ، ويريد
بربه ، ويخطط بربه ، وينفذ بربه .. فالله هو الوكيل فى كل
أعماله .

بل هو يمشى به ، ويتنفس به ، ويسمع به ، ويبصر به ، ويحيا
به . وتلك قوة هائلة ومدد لا ينفد للعابد العارف ، كادت أن
تكون يده يد الله وبصره بصره ، وسمعه سمعه ، وإرادته إرادته .
إن نهر الوجود الباطنى داخله قد اتسع للإطلاق .. وفى ذلك
يقول الله فى حديثه القدسى :

« لم تسعنى سماواتى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى
المؤمن » .

هذا التصعيد الوجودى ، والعروج النفسى المستمر هو المعنى
الحقيقى للدين .. وتلك هى الهجرة إلى الله كدحا .
﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ .

أغمض عينيه وتجرد عن كل شيء حتى عن نفسه يلقبها هي
الأخرى وراء ظهره ، ويخرج من جلده إلى حالة من الخلوص
والمحو واللاشيء .. إلى راحة العدم ..

ويختار المبشر لكل واحد من أتباعه تسبيحة يرددها .. هي في
العادة كلمات سنسكريتية لا تعنى بالنسبة للمريد أى شيء ..
وسوف تعاون هذه التسبيحة المريد على أن يخرج من نفسه أكثر ،
ويتجرد من عالمه ويخرج من حضرة الهم والغم والتوتر إلى حضرة
أخرى مجردة تكون فيها راحته وخلصه .

إنها دعوة إلى نوع من السكينة العقلية التي تأخذ فيها النفس
راحة وإجازة من معاناتها .. ورأيت مع المبشر كتباً ومنشورات
وبحوثاً علمية وإحصائيات تؤكد شفاء الكثيرين من ضغط الدم
والذبحة واضطراب الهرمونات والصداع المزمن بعد مباشرة هذه
الجلسات لمدة شهور .

وفي أحد هذه البحوث كان الطبيب يتابع ضغط دم المريض في
أثناء جلسة الاسترخاء فتسجل الأجهزة انخفاض الضغط
انخفاضاً ملحوظاً مع هبوط في تسارع النبض مع تغير في أخلط
الدم الكيمائية في اتجاه المزيد من التوازن .

وفي جلسة طويلة مع المبشر قال لي أنه ألقى عدة محاضرات في

الصلاة

آخر صبيحة في أمريكا الآن موضة جديدة اسمها
(Transendental Meditation) وترجمتها الحرفية هي
الاستغراق التأمل المتجرد .. وهي موضة وافدة من الهند وبدعة
من بدع اليوجا .. وقد لاقت نجاحاً مكثراً في المجتمع
الأمريكي شأنها شأن كل البدع الجديدة ، ووضعت فيها الكتب
والمؤلفات ، وأقيمت المؤتمرات وأصبح لها أتباع بالملايين ..
وأصبح لها رسل ودعاة ومبشرون ينطلقون إلى القارات الأربع
ومعهم الكتب والنشرات للدعوة للمذهب .. وقد التقيت بأحد
هؤلاء المبشرين في نادى الجزيرة يحاول أن يدعو لمذهبه .
والمذهب في اختصار شديد يدعو كل منا إلى أن يخصص بضع
دقائق من يومه يطرح فيها عن نفسه كل الشواغل ، ويلقى عن
باله كل الهموم ويستلقى في استرخاء كامل على كرسي وقد

النادى مع تمارين توضيحية تشرح مذهبه .. ولكنه اشتكى من عدم التجاوب بين المستمعين وأنه لم يلاق الصدى والنجاح الذى توقعه .

وقلت له إن هذا أمر طبيعى ومتوقع .. فما تقوله وما تبشر به ليس أمراً جديداً على أسماعنا .. بل إننا نباشر هذه التمارين بالفعل كمسلمين خمس مرات فى اليوم .. فهى جزء من صلاتنا الإسلامية التى أمرنا بها نبينا عليه الصلاة والسلام ..

فالصلاة عندنا تبدأ بهذا الشرط النفسى .. أن يتجرد المصلى تماماً عن شواغله وهمومه ، وأن يطرح وراءه كل شىء ، وأن يخرج من نفسه وما فيها من أطماع وشهوات وخواطر وهو اجس هاتفاً .. الله أكبر .. أى أكبر من كل هذا ويضع قدمه على السجادة فى خشوع واستسلام كامل وكأنما يخرج من الدنيا بأسرها ..

ولكن صلاتنا تمتاز على التمرين الذى تبشر به .. بأنها ليست خروجاً من دنيا التوتر والقلق إلى عالم المحو الكامل وراحة العدم .. بل هى خروج إلى الحضرة الإلهية .. إلى حضرة الغنى المطلق .. ونحن لا نستعين بتساويح وطلاسم سنسكرينية لا معنى لها ، وإنما نسبح بأسماء الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لنتمثل فى قلوبنا تلك الحضرة الإلهية الجمالية التى ليس كمثله شىء .

وقلت له إن صلاتنا تعطى المؤمن كل الراحة والإجازة التى

تدعو إليها وزيادة .. فهى ليست مجرد سكتة عقلية ، بل صحوة قلبية وانفتاح وجدانى تتلقى فيه النفس شحنة جديدة من النور ونفحة من الرحمة ومدد من التأييد الإلهى .

إنها لحظة خصبة شديدة الغنى ، تعيد صلة المؤمن بالنبع الخفى الذى يستمد منه وجوده .

إن الانفصال عن دنيا النقص والشر والتوتر يواكبه الاتصال بعالم الكمال ومن هنا كان أثر الصلاة على المصلى مضاعفاً . وصلاتنا إذا صلاها المسلم بحضور كامل ، واستغراق وفناء واندماج ، فإنها تكون شفاء من كل الأمراض التى ذكرتها وأكثر .

وإذا أجريت البحوث والفحوص على ما يحدث فى أثناء الصلاة لضغط الدم والنبض ، وتسجيل المنخ الكهربائى ، وأخلاق الدم الكيمائية ، لكشفت عن نتائج أكثر إبهاراً مما ذكرت فى تمارينك .. ولكن للأسف لا أحد فى أمريكا أو أوربا يرى إسلامنا على حقيقته ولا أحد يحاول أن يبحث فيه .

ولهذا سوف تظل صلاتنا الإسلامية كنزاً مخفياً لا يعلم ما فيه إلا من باشره بحضور كامل .. يقول لنا الله « أقيموا الصلاة » ولا يقول صلوا .. لأن الصلاة الحقيقية إقامة تشترك فيها جميع الأعضاء مع القلب والعقل والروح ..

وخطأ الأوربي أنه يظن أن الصلاة « الإسلامية » هى مجرد

حركات وأنها على الأكثر مجرد اغتسال ورياضة « بدنية » ، ولهذا يقف عند ظاهر الأمر لا يتخطاه ..
وينسى أن الحركات في الصلاة مجرد رمز فهى وقوف إكبار لله مع كلمة الله أكبر ، ثم ركوع ثم فناء بالسجدة وملامسة الأرض خشوعاً وخضوعاً ، وبذلك تتم حالة الخلع والتجرد والسكينة « الكاملة » النفسية .. ولا يبقى إلا استشعار العظمة لله تسبيحاً .. سبحان ربي الأعلى وبحمده .. سبحان ربي الأعلى وبحمده ..

« وسبحان » معناها ليس كمثلته شيء ، وهو اعتراف بالعجز الكامل عن التصور .. ومعناها عجز اللغة وعجز اللسان وعجز العقل عن وصف المحبوب .

وتلك ذروة « نفسية » في النجوى :

وتلك هى وقفة الأدب حينما بلغ جبريل سدره المنتهى فلم يستطع أن يتخطاها .. وقال لو تقدمت لا احترقت .
وليس بعد هذه الوقفة إلا التجليات والتنزلات للكاملين الذين يؤهلهم التجرد الكامل لاستشراق الأنوار .

فالصلاة هى المعراج الأصغر وهى نصيب المسلم من المعراج الأكبر الذى عرج فيه محمد عليه الصلاة والسلام إلى ربه . وهى ليست مجرد حركات .. بل هى أسرار ورحمات . وأشرفها وأرفعها صلاة الفجر التى تشهدها الملائكة .. وصلاة

قيام الليل .. التى نال صاحبها بها المقام المحمود .
والصلاة هى الرصيد المتاح من الرحمة لكل مسلم فى البنك الإلهى .. إن شاء أخذ منه وإن شاء ضل عنه وتكاسل فأضاع على نفسه كسباً لا يقدر بمال ..
وما زالت الصلاة كنزاً مخفياً لا نعلم عن أسرارها إلا أقل القليل ولا ينتهى فى الصلاة كلام .

ما تحب وتتحمل ما تكره .. أما إذا كان كل همك هو الانقياد
لجوعك وشهواتك فأنت حيوان تحركك حزمة برسيم وتردعك
عصا .. وما لهذا خلقنا الله .

الله خلق لنا الشهوة لتسلق عليها مستشرفين إلى شهوة
أرفع .. نتحكم في الهياج الحيواني لشهوة الجسد ونصعد عليها
لنكتفى بتلذذ العين بالجمال ، ثم نعود فنتسلق على هذه الشهوة
الثانية لتلذذ شهوة العقل إلى الثقافة والعلم والحكمة ثم نعود
فنتسلق إلى معراج أكبر لنستشرف الحقيقة ونسعى إليها ونموت في
سبيلها .

معارج من الأشواق أدناها الشوق إلى الجسد الطيني وأرفعها
الشوق إلى الحقيقة والمثال .. وفي الذروة .. أعلى الأشواق لرب
الكمالات جميعها . الحق سبحانه وتعالى ..
يقول الله في حديثه القدسي :

« يا بن آدم خلقتك لى و خلقت الأشياء لك فلا تشتغل بما هو
لك عما أنت له » .

ولهذا سخر الله لنا الطبيعة بقوانينها وثرواتها وكنوزها ،
وجعلها بفطرتها تطاوعنا وتخدمنا فنحن لم نبذل مجهوداً كبيراً
لنجعل الجمل يحمل أثقالنا ، أو الكلب يحرس ديارنا ، أو الأنعام
تنفعنا بفرائها ولحومها وجلودها .. وإنما هكذا خلقت مسخرة
طائعة .. وإنما العمل الذى خلقنا الله من أجله والتكليف الذى

الصيام

الصيام من الشعائر القديمة المشتركة في جميع الأديان .
وهوارة الجدل دائما يسألون .. كيف يخلق لنا الله فماً وأسناناً
وبلعوماً ومعدة لتأكل ثم يقول لنا صوموا .. كيف يخلق لنا الجمال
والشهوة ثم يقول لنا غضوا أبصاركم وتعففوا .. هل هذا
معقول ..

وأنا أقول لهم بل هو المعقول الوحيد .. فالله يعطيك الحصان
لتركبه لا ليركبك .. لتقوده وتخضعه لا ليقودك هو ويخضعك ..
وجسمك هو حصانك المخلوق لك لتركبه وتحكمه وتقوده
وتلجمه وتستخدمه لغرضك ، وليس العكس أن يستخدمك هو
لغرضه وأن يقودك هو لشهواته .

ومن هنا كان التحكم في الشهوة وقيادة الهوى ولجام المعدة هي
علامة الإنسان .. أنت إنسان فقط في اللحظة التي تقاوم فيها

كلفنا به هو أن نركب هذه الدواب مهاجرين إلى الهدف .. إلى
الله .. إليه وحده في كماله ..

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .
و لعبادة لا تكون إلا عن معرفة .

فحياة رحلة تعرف على الله وسوف يؤدي بنا التعرف على الله
وكمالاته إلى عبادته .. هكذا بالفطرة ودون مجهود ، وهل نحتاج
إلى مجهود لنعبد الجميلة حياً ..

إنما تتكفل بذلك الفطرة التي تجعلنا ندوب لحظة التطلع إلى
وجهها ، فما بالنا لحظة التعرف على جامع الكمالات والذي هو
نبع الجمال كله .. إننا نفنى حياً .

وما الصيام إلا التمرين الأول في هذه الرحلة

إنه التدريب على ركوب الفرس وترويضه وتطويعه بتحمل
الجوع والمشقة وهو درس الانضباط والأدب والطاعة .

وهذه المعاني الراقية « الجميلة » ليس منها ما نعرف في صيام
اليوم من فوازير ونكات وهزليات وصوانٍ ومكسرات وسهرات .
وإنما الصائم يفرغ نفسه للذكر وليس للتليفزيون .. ويخلو
للصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وتدبر معانيه وليس للرفص

وترديد الأغاني المكشوفة .

وقد كان رمضان دائماً شهر حروب وغزوات واستنهاء في

سبيل الله .

كانت غزوة بدر في رمضان .. كما كانت حرب التتار في
رمضان .. وحرب الصليبيين في رمضان .. وحرب إسرائيل في
رمضان .

ذلك هو الصيام الرفيع .. ليس تبطلاً .. ولا نومًا بطول النهار
وسهرًا أمام التليفزيون بطول الليل .. وليس قيامًا متكاسلاً في
الصباح إلى العمل .. وليس نرفزة وضيق صدر وتوترًا مع
الناس .. فالله في غنى عن مثل هذا الصيام ، وهو يرده على
صاحبه ولا يقبله ، فلا ينال منه إلا الجوع والعطش .

وإنما الصيام هو ركوب لدابة الجسد لتكدح إلى الله بالعمل
الصالح والقول الحسن والعبادة الحقة .

واسأل نفسك عن حظك من كل هذا في رمضان وستعلم إلى
أى حد أنت تباشر شعيرة الصيام .

الزكاة

كان من عادة إخواننا الشيوعيين حينما يذكر موضوع الزكاة أن يبتسم الواحد منهم في سخرية وكأنما وجد الثغرة التي ينفذ منها ، فالزكاة عنده هي الحل المخجل لمشكلة العدل الاجتماعي ، فالعدل لا يعالج بالتسول وبتوزيع الصدقات ، وإنما بالبتز والاستئصال والنكال والتنكيل بالمستغلين الظالمين ، ونزع أصحاب المال وأصحاب الأرض من جذورهم بانقلاب شيوعي يصحح الأوضاع ، وهذا التوصيف الشيوعي للزكاة خاطئ .

ولكن نبرة العنف في كلام الرفاق تذكرني دائماً برأى قاله المفكر الإسلامي المغربي الدكتور المهدي بن عبود : إن الشيوعية ليست نظرية وليست مذهباً وليست فكراً كل هذا تمويه ، ولكن الشيوعية في الحقيقة طبع .. الشيوعية غل وحقد وضغن وطبيعة

تأرية تنزع بصاحبها إلى طلب النكال والتنكيل والإذلال والتسلط ، وهم لا يرون إصلاحاً إلا أن يكون بترًا واستئصالاً دمويًا وقلبًا لكل شيء من القواعد ، وهي طبيعة تلتمس دائماً المذهب الذي يساعدها ، ومن هنا كان اختيارهم للشيوعية لا عن اقتناع ولا عن منطق ولا عن عقل ، ولكن عن طبع ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما مضى مذهب الخوارج والقرامطة والخرمية ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما بعد التكفير والهجرة ، لأنه يشبع فيهم نفس الطبيعة .

ثم نعود إلى تصور الرفاق عن الزكاة ونقول لقد فهموها خطأ ، فليست الزكاة هي تفضل من الغني يلقي به للفقير من باب حسنة لله يا محسنين ، وليست صدقة لمتسول ، بل هي حق يؤخذ من خير مال القادر ، ويصل إلى يد المحتاج في كرامة ودون أن يسأل أو يمد يداً ، فما يصل إليه حق وليس تفضلاً ، وحكمه حكم الضريبة التي تؤخذ بقانون وتنفق بقانون .

ثم إن الإنفاق ليس له حد أقصى فهو في حده الأدنى اثنان ونصف في المائة ، وتلك هي الزكاة المفروضة ، ولكنه مفتوح في حده الأقصى إلى ما شاء الله وما شاء كرم المعطي وإيمانه .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ .

أي كل ما تراه زائداً عن حاجتك حتى ٩٩ في المائة مما تملك إذا اعتبرت أن حسبك لقمتهك وثوبك وكفافك والباقي لله فهي

تجارة مع الله وتعامل مع الخالق وليست تفضلا على الخلق ، ولكن مثل هذا الإنفاق الزائد ، لا يكون إلا تطوعاً واختياراً من صاحبه وليس فرضاً من أحد ، وهى من حيث اسمها « زكاة » ، فهى تزكية لصاحبها وتطهير له .. يتطهر بها من الشح والبخل والأنانية فالمنتفع الأول منها صاحبها .

والصدقات أوساخ الناس كلما أنفقت منها تطهرت وَصَفَتْ نفسك من تعلقاتها المادية الأرضية .

ولا ينقص مال من صدقة ، وما أنفقت من مال فإن الله يخلفه قد يخلفه الله مالا أو صحة أو رحمة أو ذرية صالحة أو نجاحاً أو توفيقاً ، ولكن لا بد من أن يثيب الله فاعل الخير دنيا وآخرة هذا قانون إلهى لا يتخلف ويعرفه تماماً الذين يقبلون على الزكاة ويتنافسون فيها والله لا يخلف وعده أبداً .

والزكاة تلتطف الحقد وتكسر العين الحاسدة وتؤلف القلوب ، لأنها مال حلال يخرج من صاحبه حباً وكرامة وطواعية ويصل إلى المستحق دونما من ولا أذى .

وإذا أدخلنا فى نصاب الزكاة ، زكاة الشركات وزكاة البنوك ، وزكاة المؤسسات التجارية ، وزكاة الدول التى خصها الله بالموارد والثروات ، فإن مجموع النصاب الناتج سيتجاوز المليارات عدداً ، وسيصبح فى طاقته أن يغير موازين الاقتصاد الموجودة تماماً ، ثم إن إنفاق هذه المليارات بأسلوب عصرى

واستثمارها لصالح الطبقة الفقيرة ، ولخلق المشاريع لتشغيل الأيدي العاطلة وبناء الصناعات . والارتفاع بالتعليم كفيل بأن يغير وجه الحياة دون عنف ودون قهر ودون نكال أوتنكيل .. هكذا تلتقى الأيدي فى محبة وتعاون وتكافل فيثمر الخير مزيداً من الخير ، أما العنف الشيوعى فلن يثمر إلا عنفاً ، ولن يثمر القهر إلا رفضاً وكسلاً ولا مبالاة ، ولن يثمر التسلط إلا يأساً وسلبية وينتهى الأمر بأن ينفذ كل واحد يده من كل شىء ، ويقول لتفعل الدولة ما تريد ، ولكن الدولة فى الشيوعية ليست كائناً حياً سوياً ، وإنما هى ديناصور ومسوخ شائه من القوى البوليسية والشعب الخائف المدعور ، ثم طواغيت ومراكز قوى تعمل طليقة باسم الحزب وتظلم وتستغل ، وتنهب كما تشاء باسم الحزب ، وتغضى جرائمها بالشعارات والأكاذيب والإعلام الموجه .

وشتان بين هذا التكوين الاجتماعى المتشنج وبين التكوين المتناسق للمجتمع الإسلامى الذى يعمل فيه الكل مؤمنين بأن العمل عبادة ، وأن الإنفاق تعامل شخصى مع الله ، وأن الصدقة تقع أولاً فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير ، وأن علاج المريض عبادة ، وإقامة جدار عبادة ، وإنشاء كوبرى عبادة .. وأن المعروف لا يضيع والعمل الصالح لا يذهب سدى ، وأن الملك له مالك ، وأن فى السماء إلهاً عادلاً عدله لا يتخلف ، وكل هذا يثمر

سكينة ورضاً وراحة قلب تساوى الدنيا وما فيها .
فأين هذا من حال مجتمعات الوفرة والغنى التي ينتحر أصحابها برغم الوفرة ، وترتفع فيها إحصاءات الجنون والأمراض النفسية والقلق والاكتئاب برغم الغنى ، وتتحلل الأسر وتتفكك العائلات وتنتشر المخدرات والشذوذ الجنسي والجرائم والسرقات ، برغم العلم والتكنولوجيا والنقد وتضاعف أعداد مراكز البوليس وأقسامه ، ومع ذلك لا تشعر بلحظة أمن ولا تستطيع أن تخرج دولاراً من جيبك ، ولا أن تنام دون أن تغلق المزاويج والترابيس خلف بابك .

لأنها مجتمعات مادية كل مليم فيها محسوب بالكمبيوتر ، ثم لا اعتبار عندها لأى شيء آخر .. أو بشكل أدق . لا تؤمن بأن هناك شيئاً آخر خارج اللحظة الحاضرة والدولار الذي في جيبك .. لا حساب لشيء اسمه الغيب ولا اعتقاد في إله .
والذين يؤمنون منهم بالله لا يدخلون هذا الإيمان في حساب الكمبيوتر ، وهم لهذا يستبدلون الزكاة بشركات التأمين ومعاشات النقابات وبدلات البطالة ، وكلها صدقات ، ولكن ذات منطلق مختلف ، فهي لا تعطى لوجه الله ، وإنما اجتهاد علمي من عند صاحبها .. ولسان حال كل منهم يقول :
﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ .
وفارق كبير في النية والصفائية بين العاملين فأحدهما يقول :

وفقنى الله فأعطيت ما أعطيت ابتغاء وجهه ، والآخر يقول :
« اجتهدت من عندي وأنفقت وأعطيت » .
فأحدهما لا يرى إلا الله والآخر لا يرى إلا نفسه .. ولهذا ينتهى عمله إلى الإحباط أما العمل الأول فإن الله يشره بكرمه ويحفظه برعايته .

وتلك هي الزكاة .. مرهماً وبلساً وملطفاً وشفاءً للنفس ، وطهرة للقلب ، وهي تعامل مع الله رأساً دون رسنه ، وإيمان بالغيب وثقة في المقدور ، ويقين بقوانين العدل الإنهى التي لا تتخلف ، وهي شيء آخر تماماً غير مفهوم المعونة الاجتماعية في المجتمع الغربى وقد يسأل سائل فيقول أنيس كزهما عملاً صالحاً ..

فنقول نعم مع فارق كبير في العرفان ، فأنب في الزكاة لا تعرف لك يداً ولا ترى لك يداً ، ولا ترى إلا يد الله سبحانه الذي ليس كمثلته شيء .

أما في المعونة الاجتماعية بالكمبيوتر فلا ترى إلا الورقة المرقمة الخارجة من الكمبيوتر ، ولا ترى إلا يدك وما تبذل .. وعلى الأكثر لا ترى سوى إنسانيتك .

والفرق فرق عرفاني .
وهل الدين كله إلا هذه الكلمة الصغيرة ذات الحروف القليلة .. العرفان .. ؟ وهل طلب الله من نبيه سوى العرفان ؟

فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك .
وهل يفترق مؤمن عن كافر إلا بهذه المعرفة ، الذين يرجون
أيام الله ، والذين لا يرجون أيام الله ، والذين يوقنون بالآخرة
والموقف والحساب . والذين لا يؤمنون إلا بيومهم ولحظتهم ..
صدقوني إن كلمة الزكاة تعنى الكثير ..

الحج

الجمعة .. الشمس تنحدر إلى المغرب على جبل عرفات .
الجبل مزروع بالخيام .. مليون وخمسمائة ألف حاج يحطون
عليه كالحمام في ثياب الإحرام البيض .. لا تعرف الواحد من
الآخر .. لا تعرف من الفقير ومن الغنى .. ولا تعرف من
التركي ومن العربي ؟ .
اختفت الجنسيات .. واختفت الأزياء المميزة واختفت
اللغات .. الكل يلهج بلسان واحد .. حتى الجاوى والصومالى
والأندونيسى والزنجى والأذربيجانى الكل يتكلم العربية ..
بعضهم ينطقها مكسرة وبعضهم ينطقها بلكنة أجنبية .. وبعضهم
يمد بعض الحروف ويأكل بعض الحروف ولكنك تستطيع أن تفهم
من الجميع وتستطيع أن تسمع أنهم يهتفون .. لبيك اللهم لبيك .
والذين لا يعرفون العربية تراهم قد التفوا حول مطوف

يرددون وراءه الدعاء العربي حرفاً حرفاً في خشوع وابتهاال .
في البقعة التي كنت أقف فيها أكثر من خمس عشرة جنسية
مختلفة في مكان لا يزيد على أمتار معدودة .. التركستان
والباكستان وكازخستان وغينيا وغانا ونيجيريا وزنبار وأوغندا
وكينيا والسودان والمغرب واليمن والبرازيل وإسبانيا والجزائر
وسيلان .. كلهم حولي يتصافحون ويتبادلون التحية ، وهنئ
بعضهم بعضاً .

ولولا أن المطوف أخبرني بهذه الجنسيات لما عرفتها ، فالكل
كانوا يبديون لعيني وكأنهم عائلة واحدة في مجلس عائلي حميم ..
على بعد خطوات كان أكثر من ستين هندياً يلتفون حول
مطوف هندي ، وهو الآخر فيما يبدو يقرأ لهم الدعاء العربي من
كتاب في يده .. وهم يرددون خلفه الدعاء وهم يبكون وقد
تخضلت لحاهم الطويلة الكثة بالدموع .

وهم قطعاً لم يكونوا يعرفون العربية ، ولم يكونوا يدركون
معاني ما يرددون من حروف .. وإنما شعروا بها بقلوبهم فبكوا .
كان كل واحد يشعر أنه يخاطب الله بهذه الحروف وأنه في
حضرة الله وفي ضيافته وفي رحابه .. وأنه يقف حيث كان يقف
محمد عليه الصلاة والسلام .. النبي العظيم البدوي الفقير
الأمي .. وأنه يسجد حيث كان يسجد ، ويركع حيث كان
يركع ، ويردد ما كان يردده من دعاء .. بذات اللسان العربي ..

وفي ذات اليوم .. يوم الجمعة من ذي الحجة .. وصل ذبذبات
صوت النبي وأصوات أصحابه ما زلت في انقضاء حوله ..
فلا شيء يفنى في الطبيعة ولا شيء يستحدث
عرفت أن هؤلاء الستين هم من أفتر طائفة هندي وأنهم جاءوا
إلى مكة على الأقدام وعلى سفن سرعية وسر جمال .
وكان زعيمهم يحمل علماً عبارة عن خرقة مزقة .
وبعضهم جاوز الثمانين .. وبعضهم كف بصر .. وبعضهم
كان يحمل بعضاً .

وكان الكل يبكون بحرقة ويذوبون خشوعاً .
كانوا فقراء حقاً .

وعلى بعد خطوات كان هناك هندي آخر ، من لي المطوف
إنه مهراجا يملك عدة ملايين .. وكان بذات ملابس الإحرام
البيضاء .. وكان يبكي بذات الخشوع .. وكان مشلولاً يحمله
أتباعه على محفة .

كان فقيراً هو الآخر حقاً .

ومن منا ليس فقيراً إلى الله .

إن الملايين لا تعفى أحداً من الشيخوخة والعمى والمرضى
والموت .

إن السيد بخادمه يمرضان بالأنفلونزا ويمران بنفس
الأعراض .. - ترى السيد يعاني دائماً أكثر من الخادم .

ويستنجد بعشرات الأدوية والعقاقير ، ويجمع حوله الأطباء
فلا يفعل له العلم ولا الطب شيئاً .. وكانوا يقولون لنا في كلية
الطب على سبيل السخرية .. إن الأنفلونزا تشفى في سبعة أيام
بدون علاج .. وفي أسبوع إذا استخدمنا العلاج .

والأنفلونزا مرض بسيط .. تافه .. هي مثل من ألف مثل
لضعف الإنسان وحاجته وفقره الحقيقي مهما كثرت في يده
الأموال وتعددت الأسباب .

من منا ليس فقيراً إلى الله وهو يولد محمولاً ويذهب إلى قبره
محمولاً وبين الميلاد والموت يموت كل يوم بالحياة مرات ومرات .

وأين الأباطرة والأكاسرة والقيصرة ؟
هم وإمبراطورياتهم آثار .. حفائر .. خرائب تحت الرمال .
الظالم والمظلوم كلاهما رقداً معاً .

والقاتل والقتيل لقياً معاً نفس المصير .
والمنتصر والمهزوم كلاهما توسداً التراب .
انتهى الغرور .

انتهت القوة .. كانت كذبة .
ذهب الغنى .

لم يكن غنى .. كان وهماً .
العروش والتيجان والطبالس والخز والحزير والديباج .. كل

هذا كان ديكوراً من ورق اللعب .. من الخيش المطلى والدمور
المنقوش .

لا أحد قوى ولا أحد غنى .
إنما هي لحظات من القوة تعقبها لحظات من الضعف يتداولها
الناس على اختلاف طبقاتهم .

لا أحد لم يعرف لحظة النذل ، ولحظة الضعف ، ولحظة
الخوف ، ولحظة القلق .

من لم يعرف ذل الفقر ، عرف ذل المرض ، أو ذل الحب
أو تعاسة الوحدة ، أو حزن الفقد ، أو عار الفضيحة أو هوان
الفشل أو خوف الهزيمة .

بل إن خوف الموت ليلحق فوق رؤوسنا جميعاً .
كلنا فقراء إلى الله . كلنا نعرف هذا .

وهم يعرفون هذا جيداً .. ويشعرون بهذا تماماً ، ولهذا
يبكون .. ويذوبون خشوعاً ودموعاً .

سألني صديقي وهو رجل كثير الشك :
- وما السر في ثياب الإحرام البيضاء وضرورة لبسها على

اللحم وتحريم لبس المخيط .. وما معنى رجم إبليس والطواف
حول الكعبة .. ألا ترى معي أنها بقايا وثنية .

قلت له : أنت لا تكتفى بأن تحب حبيبك حباً عذرياً
أفلاطونياً ، وإنما تريد أن تعبر عن حبك بالفعل .. بالقبلة

﴿ اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس ضوى ﴾

هو التجرد المناسب لجلال الموقف .
وهذا هو الفرق بين لقاء لرئيس جمهورية .. ولقاء مع الخالق .
فنحن نرتدى لباس التشريفة لنقابل رئيس الجمهورية .
أما أمام الله فنحن لا شيء .. لانكاد نساوى شيئاً .
وعلينا أن نخلع كل ثياب الغرور وكل الزينة .
قال صديقي في خبث : ورجم إبليس ؟

قلت :

- أنت تضع باقة ورد على نصب تذكاري للجندى المجهول ،
وتلقى خطبة لتحيته .. هل أنت وثني ؟
لماذا تعتبرني وثنيًا إذا رشقت النصب التذكاري للشيطان
بحجر ولعنته .. إنها نفس الفكرة .

إنها كلها رمزيات .
أنت تعلم أن النصب التذكاري مجرد رمز ، وأنه ليس
الجندى .

وأنا أعلم أيضاً أن هذا لتمثال رمز ، وأنه ليس الشيطان .
وبالمثل السعى بين الصفا والمرورة إلى حيث نبعت عين زمزم
التي ارتوى منها إسماعيل وأمه هاجر .. هي إحياء ذكرى عزيزة

والعناق واللقاء .. هل أنت وثني ؟

وبالمثل من يسعى إلى الله بعقله وقلبه .. يقول له الله : إن هذا
لا يكفي .. لا بد أن تسعى على قدميك .
والحج والطواف رمز لهذا السعى الذي يكتمل فيه الحب
شعوراً وقولاً وفعلاً .
وهنا معنى التوحيد .

أن تتوحد جسداً وروحاً بأفعالك وكلماتك .
ولهذا نركع ونسجد في الصلاة ولا نكتفى بخشوع القلب ..
فهذه الوحدة بين القلب والجسد يتجلى فيها الإيمان بأصدق
مما يتجلى في رجل يكتفى بالتأمل .
أما ثياب الإحرام البيضاء فهي رمز الوحدة الكبرى التي
تذوب فيها الأجناس ويتساوى فيها الفقير والغني .. المهراجا
وأتباعه .

ونحن نلبسها على اللحم .. كما حدث حينما نزلنا إلى العالم في
لحظة الميلاد وكما سوف يحدث حينما تغادره بالموت .. جئنا
ملفوفين في لفافة بيضاء على اللحم .. ونخرج من الدنيا بذات
اللفة .

هي رمز للتجرد .. لأن لحظة اللقاء بالله تحتاج إلى التجرد كل
التجرد .

ولهذا قال الله لموسى :

ويوم لا ينسى في حياة النبي والجد اسماعيل وأمه المصرية هاجر .

وجميع شعائر ديانتنا ليست طقوساً كهنوتية بالمعنى المعروف ، وإنما هي نوع من الأفعال التكاملية التي يتكامل بها الشعور والتي تسترد بها النفس الموزعة وحدتها ..

إنها وسيلة لخلق إنسان موحد .. قوله هو فعله .. فالكرم لا معنى له إذا ظل تصریحاً شفوياً باللسان ، وإنما لابد أن تمتد اليد إلى الجيب ثم تنبسط في عطاء ليكون الكرم كرمًا حقيقيًا .. هل هذه الحركة وثنية أو طقساً كهنوتياً .

وبهذا المعنى ، شعائر الإسلام ليست شعائر ، وإنما تعبيرات شديدة البساطة للإحساس الديني .

ولهذا كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي بلا طقوس وبلا كهنوت وبلا كهنة .

ألا تراهم أمامك أكثر من مليون يكلمون الله مباشرة بلا واسطة ويركعون على الأرض العراء حيث لا محاريب ولا مآذن ولا قباب ولا منابر ولا سجاجيد ولا سقوف منقوشة بالذهب ولا جدران من المرمر والرخام .

لا شيء سوى العراء .

ونحن عراء .

ونفوسنا تعرت أمام خالقها فهي عراء .

ونحن نبكى .. كلنا نبكى .
وسكت صديقي وارتفعت أصوات التلبية من مليون وخمسمائة ألف حنجرة .. لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا نريك لك لبيك .
وكنت أعلم أن صديقي مازال بينه وبين الإيمان الحقيقي أشواط ومراحل ومعراج من المعاناة .

مازال عليه أن يصعد فوق خرائب هذا البناء المنطقي الذي اسمه العقل ويستشرف على ينابيع الحقيقة في تدفقها البكر داخل قلبه .. حينئذ سوف يكف عقله عن اللجاجة والتنطع ويلزم حدوده واختصاصه ، ويدرك أن الدين أكبر من مجرد قضية منطقية ، وأنه هو في ذاته منطلق كل شيء .. وإن الله هو البرهان الذي نبرهن به على وجود الموجودات لأنه قيوماً (هو الذي أوجدها من العدم فهي موجودة به وبفضله) ، فهو برهان عليها أكثر مما هي برهان عليه .. وكيف يكون لعدم برهاننا على الوجود .. وكيف يكون المعدوم شاهداً على موجود الوجود .
إنها لجاجة العقل .. وهي سلسلة من الخرائب المنطقية لابد أن نمر بها في معراجنا للوصول إلى الحقيقة .. وهذا عيب العصر الذي يدعى فيه العقل كل شيء .

وعصرنا للأسف عصر العلوم الوضعية ومنطق الوضعي .. هو عصر الألكترونيات والكهرباء والكيمياء والطبيعة .
والواحد منا في بداية تلقيه هذه العلوم الوضعية ، ولفرط

انبهاره بها وبمنجزاتها يتصور أنها علوم كلية يمكن أن يناقش بها الأمور الكلية مثل الوجود الإلهي فيقع في خطأ من يحاول أن يقيس السياء بالشير ويزن الحب بالدرهم .

وتمضى عليه سنوات من التمزق والمعاناة قبل أن يكتشف أن الطبيعة والكيمياء علوم جزئية تبحث في المقادير والعلاقات واختصاصها هو القضايا الجزئية ، وهي لا تصلح بطبيعة معاييرها للحكم على الدين لأنه قضية كلية .

الدين هو العلم الكلي الذي يحتوى على كل تلك العلوم .. في حين لا يحتوى عليه أى منها .

وعندنا نور آخر نستدل به على الحقيقة الدينية ، نور القلب وهدى البصيرة واستدلال الفطرة والبداهة .

هنا نور نستشف به الحقيقة بدون حيثيات .

هنا منطقة في الإدراك هيأها الله للإدراك المباشر .

وهى مرتبة أعلى من مراتب الشعور العادى .

وكما أن العقل أعلى فى الرتبة من حاسة مثل الشم واللمس ، كذلك البصيرة أعلى فى الرتبة من العقل ومن الإدراك بالمنطق العقلى الجدلى .

والبصيرة هبة متاحة لكل منا ، ولكن صدأ العرف والتقليد والادعاء العقلى ، والأحكام الجاهزة الشائعة . هذا عدا الغرور وظلمة الشهوات والرغبات وسعار الأحقاد والمطامع .. كل هذه

الغواشى ترين على مرآة البصيرة فتحجب نورها الكاشفة . ويمضى العمر والإنسان يصارع هذه الرغبات ويتمزق ، ويعانى ويسأل ويتساءل ويحفر ، فى داخل نفسه حتى تنهتك الأستار ، وتنجلي الغواشى ، ويبدأ يدرك الحقيقة بهذه الرؤية الكلية التى هى هبة بصيرته .

وهنا يبدأ يعرف ما هو الدين .

وقد يرى بالبصيرة من لا يحمل الشهادة .

وقد تعمى بصيرة المتعلم المؤهل فى الجموع .

وجلاء القلب فضل إلهى قد يوهب وقد يكسب ، ولا توجد شروط فى المعارف الإلهية ، وهذا الهندى المسنم الفقير الحافى العارى الغارق فى دموعه قد يعرف عن الله أكثر مما نعرف نحن الذين نكتب فى الدين والله .

وربما لو سأته عن شعوره لما استطاع أن يشرح فى عبارات مثل العبارات المنمقة التى نكتبها .. وهو أمر مهم .. فالمعارف العالية قد تعلو على العبارة وقد تعجز عنها الإشارة .. فلا يبقى إلا الصمت والدموع .

ولهذا هم يبكون على عرفات فى لحظة لقاء مع النفس والله .. تبدو فيها الكلمات مبتذلة .. واللسان عطفاً ، والعبارات خرساء ، فلا تبقى إلا الدموع ، وهى دموع غرح وحزن وندم ونوبة وتطهر وميلاد .

وهي فجر روحى يعرفه من جربه .

وقد توحى اللحظة الواحدة والظرف الواحد بشيئين مختلفين تماماً وربما متناقضين . فحينما كنا نطوف بالكعبة في زحام من ألوف مؤلفة ، كان صديقى يلهث مختنقاً وكل ما يخطر له بالمناسبة هو تخيله لو كانت هذه الكعبة في أوروبا في برلين مثلاً ، إذن لاختلف الأمر ولطاف حولها الأوربيون في طوابير منظمة لا يزحم فيهم الواحد الآخر .. بينما كنت أنا أنظر إلى الألوف المؤلفة التي تدور كالذرات البيضاء وأرى فيهم الملايين بلا هوية ممن حجوا وطافوا وعاشوا وماتوا .. أرى فيهم أبى وأمى .. كانوا هنا يطوفون منذ سنوات في هذا الزحام نفسه .. ومن قبلهم جدى الذى جاء إلى هنا على ظهور الإبل .. ثم الأجداد .. وأجداد الأجداد من قبل إلى أيام النبى الذى خرج من مكة مهاجراً وعاد إليها فاتحاً .. كنت أنظر فى الجموع الحاشدة من منظور تاريخى وفى خناق الزحام نسيت نفسى تماماً ، وفقدت هويتى ، ولم أعد أعرف من أنا .. هأنذا قد مت أنا الآخر .. وهذا ابنى يطوف ويذكرنى وهو يطوف ، ثم يموت ذات يوم ويصبح هو الآخر ذكرى . كانت لحظة روحية شديدة التوهج فقدت فيها إحساسى بذاتى تماماً ، وغبت عن نفسى وامتلات إدراكاً بأنه لا أحد موجود حقاً سوى الله .. وتذكرت السطر الأول من قصة الخلق . فى البدء كان الله ولا شىء معه .

وفى الختام يكون ولا شىء بعده .
هو الأول والآخر .
هو ..

نعم هو ولا سواه .

كانت لحظة من المحو الكامل لكل شىء بما فى ذلك نفسى ذاتها ، فى مقابل ملء مطلق وملاء مطلق لموجود واحد مطلق هو الله .

وبالرغم من الإحساس بالغياب فإنه كان إحساساً فى الوقت ذاته بالحضور .. الحضور الشامل المهيمن المالى لكل ذرة من الشعور .. حضور ماذا .. ؟

وأحار فى وصف تلك اللحظة ولا أجد الألفاظ ولا العبارات وأكتفى بأنها أعمق ما عشت من لحظات .

إنها أشبه بعدة ستائر تفتح متتالية بعضها من وراء البعض .. تفتح ستارة لتكشف عن مسرح صغير هو الواقع الفردى بتفاصيله، ثم تفتح ستارة فى العمق لتكشف عن واقع آخر خلفى كبير ، هو الواقع التاريخى يتلع الواقع الأول بما فيه . ثم تفتح ستارة ثالثة فى العمق البعيد تكشف عن حقيقة الخنادق التي يبهت أمامها كل شىء .

هو إحساس دينى يصعب تصويره فى كلمات
هو أشبه بموقف مقاتل على الجبهة .

إنه في تلك اللحظة ينسى همومه الصغيرة .

هموم وطنه تبتلع همومه .

وجراح وطنه تبتلع جراحه فينسى مشكلات بيته الصغير

ويذوب في مشكلات مجتمعه الكبير .

هناك حضور أكبر ابتلع الحضور الأصغر .

وبالمثل لحظة الوقوف في حضرة الله .

هنا الحضرة العظمى .. حضرة الحق .

وهي حضرة هائلة تذوب أمامها الحواس تمامًا .

يفنى الواقع الصغير .. واقع النفس ومشكلاتها اليومية .. ثم

الواقع الزمني المحيط بتفاصيله .. ثم الواقع التاريخي كله .

ثم يكون فناء النفس ذاتها في لحظة احتواء كامل من ذات

عظمى مهيمنة .

هي لحظة صوفية نعرفها في الحب .. ويروها لنا المحبون .

والحب البشري لا شيء بالنسبة للحب الإلهي .

وجمال امرأة لا شيء بالنسبة للجمال المطلق الكلي .

أين كان صديقي من هذا كله ؟

ما أبعد كل منا عن الآخر مع أن ذراعي في ذراعه .. كان

يفكر ويمنطق ويرتب الحيشيات .

وكنت أذوب حباً وقد قفزت بي اللحظة فوق حاجز العقل

وجاوزت بي الحدود والتفاصيل لتضعني على ذروة أرى منها رؤية

كلية . وأدرك منها إدراكاً كلياً .

هو الحب .

والدين في جوهره حب .. والمخ هجرة إلى بيت الحبيب

والطراف للعشاق .

هؤلاء لا يجدون فيه كلفة ولا تكليفاً .

وإنما يجدون حواراً مؤنساً .. ومكاملة من تلك المكالمات السرية

التي تضيء مجاهيل القلب .

وما أكثر ما شعرت به في الكعبة مما لا أجد له كلمات .

قد يسأل سائل : لماذا نتكبد المشاق لنذهب إلى الله في رحلة

الحج .. ولماذا هذه الهجرة المضنية .. والله معنا في كل مكان .. بل

هو أقرب إلينا من جبل الوريد . وهو القائل إنه ﴿ قريب مجيب

الدعوات ﴾ .. بل إن قربه لنا هو منتهى القرب .. فما الداعي

إلى سفر وارتحال لنقف فوق عرفة ندعوه منها .. وهو القريب منا

قرب الدم من أجسادنا .

والسؤال وجيه .

والحقيقة أن الله قريب منا بالفعل وأقرب إلينا من الدم في

أجسادنا ، ولكننا مشغولون على الدوام بغيره .

إنه لا يقيم دوننا الحجب ولكننا نحن الذين نقيم هذه

الحجب .. نفوسنا بشواغلها وهمومها وأهوائها تلفنا في غلالات

مكثفة من الرغبات .. وعقولنا تضرب حولنا نطاقاً من الغرور ..

ومعه الاكتفاء المشبع بصحبة الخالق والائتناس به .
ولا يفهم من هذا تواكل .. لأن الرجل يصف ما بينه
وبين الله وليس ما بينه وبين الناس .. ولو أنه وجد بين الناس
شراً لقومه بالسيف .. فهذا الرجل نفسه هو المقاتل أبو ذر
وأمثاله .. وهو نفسه الذي يثور على الحاكم الظالم .. فالامثال لله
شيء غير الامثال لعباد الله ، بل هو عكسه ونقيضه ،
فخادم الله هو أول من يثور على عباد الله دون خوف ..
والخائف من الله لا تساوى عنده الدنيا شيئاً فهو أول من
يضحي بها وبنفسه تحت ظلال السيوف في سبيل كلمة حق .. لأن
الله عنده هو الحق .. وعشق الله هو الموت في سبيله .
وهذا هو توكل الإسلام وهو غير تواكل الكسالى الشحاذين
من مفترشى الأرصفة .. وهؤلاء ليسوا مسلمين أصلاً .

وليس كل من يتمتم :

﴿ قل هو الله أحد ﴾ بمسلم موحد .

والمهم ماذا تقول أعماله ..

إذا كان يعتقد حقاً أن الله أحد لا سواه ، هو الضار النافع ،
فلماذا يمد اليد إلى غيره ولماذا يتزلف ولماذا يتملق ، ولماذا يكذب
المال والعقار وهو يعلم أن الله هو المالك الوحيد للأرض
وما عليها وهو الوارث لكل ؟ ولماذا يكذب والله سميع ؟ ولماذا
يسرق والله بصير ؟ ولماذا ينافق والله حسيب ؟ ولماذا يخون والله

رقيب ؟ ولماذا يهرب والله شهيد ؟
والتوحيد أعمال وليس تمتمة وحممة .
والشكر أعمال وليس ﴿ الحمد لله ﴾ على اللسان ..
يقول الله لآل داود ..

﴿ اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ﴾
لأن المقصود بالشكر الأعمال الدالة على الشكر وليس
التمتمة .. اعملوا آل داود شكراً .. اعملوا ..
والقرآن سياق متصل مستمر .. لكلمة اعملوا .. يبدأ بكلمة
« اقرأ » للعلم ..

وبعد العلم يكون العمل على مقتضى التوحيد .

وهذا هو الدين ..

قل : لا إله إلا الله واستقم على معناها .
وهذه هى رحلة الهجرة إلى الله .. والحج والصلاة والصيام

صورتها البدنية .

والحج فى معناه خروج .

خروج من أسمائنا إلى أسماء الله .
وخروج من اعتدادنا بأنفسنا إلى الاعتداد به . وخروج من
العبودية للأسباب (المال والولد والأرض والعقار والمنصب
والسلطة والنفوذ والجاه) إلى عبودية له وحده باعتباره سبب
الأسباب .

وخرج من حولنا وقوتنا إلى حوله وقوته .
وخرج من إرادتنا إلى إرادته ، ومن رغبتنا إلى رغبته يقول
نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :

« اللهم بك انتشرت ، وبك آمنت ، وبك اعتصمت . اللهم
بك أصول وبك أجول »
« اللهم بك أصبحت وبك أمسيت ولا فخر لى »
ويقول عن الحج :

« من خرج يريد الطواف خاض في الرحمة »
وتفسير الرحمة إن الله يجذب همه عبده إليه ويعصمها من
التفرقة .

ويقول عن الركوب للسفر :
« فإذا ركب الحاج الراحلة في الظاهر يشهد في السر أن الله
الذى يحمله » وهى ذروة فى التوحيد ، فهو لا يعود يرى
الراحة أو القطار أو الطائرة ، وإنما الله هو الذى يحمل المسافر
الأسباب وقوانينه .. تختفى الأسباب ليظهر ، المسبب ويختفى
الناق ليظهر الخالق .

وهكذا تكون كل خطوة بالقدم ترافقها خطوة بالقلب إلى
من التوحيد .. ويكون مع طى الأبعاد طى داخلى للصفات ،
ب العبد بصفاته من صفات ربه ، فيكون الرحيم الكريم
الودود الرؤوف الصبور الشكور ما استطاع .. وهو صعود

ومعراج لا نهاية له .. لأن كمال الله لا نهاية له .
وهكذا يقطع المهاجر إلى الله مرحلة بعد مرحلة حتى يصل إلى
المبقات ، فيفنى عن نفسه ويموت عن صفاته ويصبح حاله فى
الظاهر والباطن حال من يحيا بالله ، وحينئذ يحق عليه الغسل
ولبس ثوب الإحرام على العرى فهذا هو ثوب الميت المولود ..
وهو ثوب من قطعتين رمزاً لستر العورة الظاهرة وستر العورة
الباطنة .. والحياء هنا على وجهين حياء من الخلق وحياء من
الحق .. حياء من سوء الخلق الظاهر الذى تعرفه الناس ، وحياء
من العورة الباطنة التى لا يراها إلا الله .. ومن هنا كانت
الخرقتين الرمزيتين .

أما النحر والذبح فهو فى حقيقته ذبح للنفس ورغباتها
وشهواتها وأهوائها .. وقد افتدى الله النفس بذبح الضحية ..
فتضحى ببعض مالك رمزاً لقتل شهواتك وهوى نفسك .
أما تقبيل الحجر الأسود فهو تزود من غائب ، فأنت تضع
شفتيك حيث وضع النبى شفتيه .

والحكايات عن أصل الحجر الأسود والكعبة كثيرة .. فهى
بيت العبادة الأول اتخذه آدم وأرشده جبريل إلى مكانه .. وحينما
غرقت الكعبة فى الطوفان استودع الله الحجر فى جبل
أبى قبيس .. وظل الأنبياء يطوفون بمكان الكعبة حتى جاء
إبراهيم فأقام قواعدها وأعاد جبريل الحجر إلى مكانه .

وفي عام مولد النبي كانت غزوة الفيل المعروفة وهدم الكعبة كما أنه في عام ٣١٧ هجرية هجم أبو طاهر القرمطي على مكة وقتل وسبي ثم اقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى الأحساء .. وقد تبرأ عبد الله المهدي من فعل أبي طاهر ومن أخذه الحجر الأسود وقتله الحجيج ، فبعث إليه برد الحجر الأسود ، ولكنه لم يستجب وبقي الحجر ٢٢ سنة ثم نقل إلى الكوفة عام ٣٣٩ هجرية ، ومنها أعيد إلى مكانه في البيت .

ويرد بعض المؤرخين اقتلاع القرامطة للحجر الأسود إلى محاولتهم إبطال الحج وهدم الإسلام ، وإظهار عبادة النار ويرى آخرون أن الصراع كان سياسياً بحتاً ، وكان المقصود منه محاربة عقيدة أهل السنة .

فالكعبة لم تسلم إذن من التخريب والهدم والسلب والنهب ... وعبر التاريخ لم يبق فيها حجر على حجر . لم يبق فيها إلا مكانها .
فهى رمز

ولا يصح تقديسها إلا رمزاً
وشأنها شأن القرآن حينما يقول عنه الله :

﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾

فلا يكون المقصود هنا « المصحف وورقه » .. لأن المصحف وورقه مادة شأنها شأن كل المواد يجرى عليها العطب والفساد ..

فإذا جرى البلى والفساد على الورق لا يكون في ذلك مهانة للدين .

وإنما المراد هنا المعنى العميق .. « لا يمسه إلا المطهرون » .. أى لا يمسه معانى القرآن ولا يفهم أسرارها إلا النفوس المطهرة من أهوائها .

وبالمثل تقوم الكعبة كرمز .. لا كحجارة .

والحج والطواف والذبح والرجم وعرفة رموز .

فإذا تجاوز تقديس البقعة إلى تقديس الحجر ، خرج المؤمن عن إيمانه وسقط إلى حضيض الشرك والوثنية ، وما هكذا مراد الله بالكعبة .

والذى يسأل لماذا يكون الطواف سبعة أشواط والرجم سبع حصوات .. نقول له ولماذا لا يكمل نحو الجنين إلا في الشهر السابع ؟ ولماذا يولد ميتاً إذا نزل قبل السابع ؟ ولماذا تكتمل النوتة الموسيقية بالدرجة السابعة فلا تكون النوتة الأعلى بعد ذلك إلا جواباً للنوتة الأولى ؟

إنه سر في بناء الكون المادى والروحي إنه سباعى التكوين ، وإن السبعة هى درجة الاستواء والتمام .

والنفس البشرية بالمثل سبع درجات . أسفلها النفس الأمارة ، ثم تليها النفس اللوامة ، ثم النفس الملهمة ، ثم النفس

وكان أمراً عجيبياً أن يهدأ البحر وتقلع الرياح وتنتهي العاصفة ، وينجو وحده ومعه ذهابه بهذه الطريقة التي تبدو كالمعجزة .

وتدمع عينا الجد ويومض بصره الكليل ، وكأنما يرى شريطاً سريعاً من اللقطات الرهيبة .. ويروى كيف قضى ليلتين في البحر ثم انتشله مركب شراعى آخر قاصداً إلى الحج .. وكيف أتم حجته السابعة ثم عاد بسلام .

ويروى كيف كان الموت يترصد الحاج في كل خطوة في البحر وفي البر وفي الصحارى .. وبين الحر المحرق والرمال والعطش إذا ضل طريقه أو ماتت راحلته .. وعلى أيدي قطاع الطرق إذا ألقى به سوء حظه إلى عصابة من عصاباتهم .. أو بمرض معد في زمان لم يكن يعرف شيئاً اسمه طب وقائى أو يسمع عن لقاح للكوليرا أو التيفود .. وكانت الرحلة تطول إلى ستة شهور وسبعة شهور وسنة ، وكان الخارج إليها مفقوداً والعائد مولوداً .

وكان يختم قصته مبتسماً بفمه الخالى من الأسنان .. وبرغم كل هذه الأهوال فقد حجبت سبع حججات وهأنذا أموت بينكم في الفراش كما يموت الكسالى من العجائز . لتعلموا يا أولادى أن كل شيء بأمر الله .. وأنه لا البحر يفرق ولا المرض يهلك ولا نار الصحارى تحرق ، وإنما هو الله وحده الذى يصرف الآجال كيف يشاء .

أذكر الآن قصة هذا الجد الطيب وتطوف بذهنى تلك الصور وأنا أضع قدمى فى الطائرة لأصل جدة فى ساعتين ، وفى ساعة ثالثة أكون فى الحرم أطوف بالكعبة ثم فى الساعة التالية أكون صاعداً إلى عرفات ، وبعد غروب الشمس أكون نازلاً إلى منى لرمى الجمرات ثم طواف الإفاضة ثم تنتهى كل المناسك فى أمان .

وأذكر السرب الطويل من خمسين ألف عربية تحمل نصف مليون حاج وتصعد كلها فى وقت واحد فى عدة طرق دائرية حديثة الرصف .. وكل شيء يتم فى سرعة ونظام ودون حادث وقد تناثرت وحدات الكشافة لتنظيم المرور .. وعلى الجبل تراصت مستشفيات كاملة التجهيز لعلاج وعزل أى حالة اشتباه .. وطوال ساعات الليل والنهار تطوف الرشاشات لقتل الذباب والبعوض فى أماكن توالده . وتطوف فرق أخرى لجمع القمامة وحرقتها .

وبين مكة والمدينة يمتد أوتوستراد أملس كالحريز تنزلق عليه العربات فى نعومة ، وينام الراكب فى حضن كرسيه فى استرخاء لذيذ .

ما أبعد اليوم من الأمس .

وما أكثر ما نتقلب فيه من النعم .

وكلما أحاطتنا النعمة ازدادنا لله هجراناً .

أين إيمان اليوم .. من إيمان النبي العظيم منذ ألف وأربعمائة سنة وهو خارج في غزوة تبوك على رأس اثني عشر ألفاً من المسلمين في شهور القيظ ، المحرق ، ليخوض في رياح السموم والحرور القاتلة سبع ليال يتهدده العطش في كل خطوة .. وقد ترك من خلفه الأمان والظل الظليل والراحة في خيام زوجاته .. ليلقى الله وليبلغ الرسالة .. وليحارب من !؟ .. الروم .. الذين احتشدوا على الحدود بمئات الألوف .

واليوم ترتفع حرارة الجو بضع درجات فندير جهاز التكييف ونغلق أبواب غرفنا لا نبرحها لأن الخروج إلى الشارع مجازفة غير مأمونة .

وما أبعد اليوم من الأمس حقاً .

وما أفدح ما خسرنا حينما خسرنا الإيمان .

كلمة التوحيد .. ماذا تعني

أكثر الذين عبدوا الله وزعموا أنهم يعبدونه واحدا جعلوا له شركاء .. أكثرهم فعلوا هذا من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون . أخناتون الذي بلغ القمة في التوحيد ، عاد فجعل من نفسه ابنا لهذا الإله فقال في نشيده مخاطباً ربه . إنك في قلبي . وليس هناك من يعرفك . غير ابنك الذي ولد من صلبك . ملك مصر العليا والسفلى . الذي يحيا في الحق . سيد الأرضين أخناتون .

لقد وقع برغم بصيرته الشفافة في هذا الإفك القديم وظن نفسه ابنا لله من صلبه ، وفي فارس تصوره الذين عبدوه إلهين اثنين . (هرمز واهرمن) : « أحدهما إلهما للخير والآخر للشر » وفي الهند تصوره ثالوثاً « براهم وفشنو وشيفا » ومن تحت الثالوث عددوا كثرة من صغار الأرباب وصلت إلى ثلاثمائة

وثلاثين مليوناً من الآلهة ، بعدد ما ظنوا من حيوانات ودواب
ومخلوقات تحل فيها أرواح تلك الآلهة .

وفي اليونان عبدوا زيوس كبير الأرباب ثم جعلوا لهذا الكبير
عصابة من صغار الآلهة بعدد ما تصوروا من قوى الطبيعة .
وعبد اليهود الرب « يهوا » إلهاً واحداً ثم جعل بعضهم من
النبي عزرا ابناً له مخالفين بذلك ما علمهم موسى من وحدانية
الخالق .

وجاء عيسى بالتوحيد فاختلف من بعده الأتباع وجعلوا من
المسيح ابناً لله وجعلوا الحقيقة الإلهية الواحده ثالثاً .
ثم جاء الإسلام بختام الكلمة في التوحيد فالله أحد صمد
لا صاحبة له ولا ولد ، ليس له ند ولا ضد ولا مثل ولا شبيه ،
لا يتحيز في مكان ، ولا يتزمن بزمان ، ولا يتحدد في كم ،
ولا يتمثل في مقدار ، ولا يتقيد بإطار ، ولا تحيط به صورة ،
ولا يتجسد في جسد ، وهو ليس من هذا العالم ، بل هو فوقه
ومتعال عليه فهو في الإطلاق وهذا العالم في القيد ، وفي كلمة
بسيطة بليغة .. أحد .. أحد .. ليس كمثل شئ .

واعتقد المسلمون بهذا التوحيد بواقع الشهادة التي يقررونها
خمس مرات كل يوم وفي كل أذان ، إنه لا إله إلا الله .. وأن الله
أكبر من كل شئ مطلقاً .. ولكن الكثرة الغالبة منهم عادت
فوقعت في ألوان جديدة من الشرك الخفى ، وبات أكثر توحيد

المسلمين باللسان بأن الله أكبر .. على حين سلوك هذه الكثرة
ومشاعرها يقول إن الدنيا أكبر ، وتحصي المال أكبر وحياسة
القصور والضياع أكبر ، والفوز برض امرأة أكبر والتقرب
للسلطة أكبر ، وهوى النفس أكبر .

الكثرة تقول لا نعبد إلا الله ولا نخاف إلا الله ، ولكن
سلوكها يقول إنها تخاف الموت والفقر والمرض والميكروب
والفيروس والشيخوخة أكثر ، وكأنما هذه الأشياء لها سلطة
الضرر بذواتها .

الكثرة تطلب الشفاء من يد الطبيب وتنتمسه في الدواء ويقع
الواحد في اليأس لأنه لم يجد الحقن مستوردة كذا أو المضاد
الحيوى كذا ، وينسى أن الله من وراء الأسباب ، وأنه هو الذى
أودع صفات الشفاء في هذا المضاد أو هذه الحقنة وأنه هو الذى
قدر البرء على يد هذا الجراح .. وأنه هو الذى خلق الفيروس
والميكروب والبكتيريا ، وأنه هو الذى نشرها وأرسلها وأنه هو
الذى أقام حواجز المناعة في أجسامنا ، وأنه إن شاء هدم هذه
المناعة ، وإن شاء أعانها وأنه خالق اخر والبرد والصقيع ، وأنه
هو الذى وضع خاصية التغذية في الغذاء وخاصية الإرواء في
الماء ، وخاصية القتل في السم ، وخاصية النفع في الترياق .
لا شئ له سلطة النفع بذاته . ولا شئ له سلطة الضرر
بذاته .

وإنما الله هو الضار النافع وما عدا ذلك أسباب أقامها الله لتعمل بمشيئته ، والتوحيد الصحيح أن نخافه هو ، لأنه لا شيء يستطيع أن يضرنا بدون مشيئته ، وأن نطمع فيه وحده لأنه لا شيء يستطيع أن ينفعنا بدون إذنه إنه وحده الذى يعمل طوال الوقت بالرغم من كثرة الأيدي التى تبدو فى الصورة .. ألم يقل للمقاتلين فى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .
مع أن الظاهر أنهم هم الذين قتلوا المشركين .. وأن النبى عليه الصلاة والسلام هو الذى رمى .
هذا هو الظاهر .

ولكن الحقيقة أنها أدوار اختار الله أبطالها منذ الأزل .. اختار للشر نفوسا علم أنها تحب الشر وعرف أنها لا تصلح إلا للشر بحكم ما أخفته فى سرها .. ولهذا اختار إبليس للغواية .. لأنه علم فيه الكبر .. واختار محمداً عليه الصلاة والسلام للهداية لما علم فيه من مودة ورحمة .. وهكذا وزع الأدوار بحكم استحقاقات علمها أزلا .. ثم أعان كل واحد على ما يصلح له .. أعان المضل على الضلال وأعان الهادى على الهدى .
﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ .
(٢٠ - الإسراء)

فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ،
وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره
للعسرى ﴿ . (٥ - ١٠ الليل)

من طلب المعونة على جريمة أعانه عليها وعليه وذر اختياره .
ومن طلب المعونة على خير أعانه عليه وله ثواب اختياره . وإنما دور كل منا هو توجيه طاقته .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الطاقة الكلية ولا يمكن إنفاذ فعل بدونه فهو الوكيل القائم على إنفاذ جميع الأفعال ، وهو اليد الفاعلة وإنما دور القاتل أنه أضمر القتل واختاره وفكر فيه وعزم عليه وهذا هو إسهامه الذى سيحاسب عليه .. أما إنفاذ جميع الأفعال فالله منفرد به .. ولهذا قال لمحاربى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ . (١٧ الأنفال)

وهذا هو المعنى الحقيقى للتوحيد أن الله هو الفاعل الوحيد .. وأنه إذا كانت لنا أعمال فهى سرائرنا ونياتنا وما نعزم عليه وما نوجه إليه طاقاتنا وما نبادر إليه ، لهذا قال الله عن نفسه إنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ . (٢٣ - الرعد)

﴿ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ .
(١٤٣ - النساء)

ولكنه شاء سبحانه وتعالى أن يطمئتنا فقال :

﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ . (٢٧ - إبراهيم)

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

(٣٤ - غافر)

﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ . (٧٤ - غافر)

فجعل الفعل الإلهي قائماً على استحقاق . وهذا يجعل من الدنيا كلها تحصيل حاصل لاستحقاقات أزلية استحققتها نفوس الخلائق بحكم منازلها التي تفاضلت بها أزلاً .. وإنما أراد الله أن نخرج ما نكتم في قلوبنا فخلق هذه الدنيا ليشهد كل منا على نفسه :

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ . (٦٤ - التوبة)

وهذا يعنى أن هذه الدنيا هى الفصل الثانى من رواية ، وإنه كان هناك فصل أول سابق عشناه ولا نذكر عنه شيئاً .. وإنما بحكم ما قدمنا فى هذا الفصل السالف استحققتنا ما نجد الآن من خير وشر .. وأن ما يجد كل منا فى حياته هو أشبه بكشف النقاب عما يكتم وعما يخفى فى ذات نفسه .

والله يعلم حقيقتنا من القدم ، ويعلم عنا كل شئ ، ولكنه أراد لنا أن نعلم عن أنفسنا بعض ما يعلم فخلق لنا الدنيا لنرى أنفسنا فى أعمالنا .

وليس هذا قولاً بتناسخ ، فأنا لا أومن بالتناسخ الذى يتكلم

عنه الهنود ، ولا فى تقمص الأرواح الذى يعتقد فيه الدرود .. ولا أظن أن الفصل الأول من الرواية كان على هذه الأرض ولا أنه كان تقمصاً سابقاً لحياة بشرية .. إنما هو أمر من أمور الغيب لا يعلمه إلا الله ، وهو ماضٍ محبوب لن يهتك عنه الستر إلا يوم يبعث الله من فى القبور ويحصل ما فى الصدور . يوماً تتكشف الأسرار ويعرف المجرمون أنفسهم على حقيقتها فيقولون معترفين :

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ . (١١ - غافر)

ولا خروج .. فهل يستطيع أن يخرج إنسان من نفسه أو يتبرأ إنسان من يديه « هيهات »

ويسأل سائل .. لمن الملك اليوم ؟

وتجيب السماوات والأرض وتجيب الملائكة وكل الخلق .. لله الواحد القهار ، وهو أمر ليس بجديد .. فالملك كان لله دائماً فى ذلك اليوم وفى كل يوم .. ولكن الظاهر فى الدنيا كان يخدع من يراه .. كان يبدو أن لبعض الناس مُلكاً . وكان يبدو أن الطبيب يشفى وأن السلطان يرزق ، وأن السم يميت وأن الرصاصة تقتل ، وأن هذا ينفع وأن ذاك يضر ، وأن هناك جبارين غير الله يحكمون .

ونسينا ما وصف الله به نفسه فى القرآن الكريم بأنه :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

(٣ - الحديد)

فإن كان الطبيب يشفى ، والسلطان يرزق ، والسم يميت ، والرصاصة تقتل ، فإن الله هو الظاهر في كل هذه المظاهر وهو الفعل الخالص فيها .. وما يجري على جميع الأيدي هو الوجه المنظور للمشئة في تلك اللحظة .. سبحانه .. كل يوم هو في شأن .. وتلك شئونه ..

وإذا كنا رأينا جبارين من غير الله يحكمون فما حكموا في الحقيقة إلا به .. وإنما تجلى حكم الاسم الجبار على نفوسهم لأن تلك النفوس لم تكن لتقبل بحكم استعدادها الأزلى إلا هذا اللون من التجلى .. لم تكن تصلح لأن يتجلى عليها الرحيم ولا الودود ولا الرؤوف .. ولم تكن لتقبل التجليات الجمالية لأسماء الحليم والكريم والحنان والمنان واللطيف ..

فنحن مازلنا مع الله لم يظهر فينا غيره .. هو الظاهر بأسمائه وأفعاله في كل شيء .. ولكن من وراء ستار الأسباب ومن خلف مقاب الكثرة .

وبرغم هذه الكثرة فإنه لا إله إلا الله .. لا فعال سواه ، ولا شاف ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا محيي ولا مميت ، لا جبار ولا مهيمن غيره .. إنها ذاته الواحدة الفاعلة أبداً زلاً .

ألا تبدو الطاقة الكهربائية في كل مصباح بشكل مختلف

حسب نوع الفتيل المعدني داخله .

ألا تبدو الكهرباء في مصابيح النيون بألوان وتألقات متفاوتة

حسب نوع الغازات في تلك الأنابيب المفرغة .

ما أشبهها جميعاً بنفوسنا التي تختلف استعداداتها فتختلف

أفعالها مع أن الفاعل فيها واحد ..

مجرد مثال .

والدنيا كلها مثال رامز للقدره قدرة الواحد الأحد الذي ليس

كمثله شيء وإذا رأيت هذا الواحد من وراء الكثرة وإذا أنت لم

تعباً بهذه الكثرة وشعرت بنفسك تتعامل طول الوقت وجهاً لوجه

مع الله فلم تر شافياً لك غيره برغم تعاطيك الدواء واستسلامك

لمبضع الجراح ، وإذا رأيت هو الذي يطعمك ويسقيك وشعرت

بنفسك تأكل من يده وتشرب من يده برغم كثرة المشارب

والمطاعم التي تتردد عليها ، وإذا نسيت نفسك ولم تر غيره فأنت

المسلم الموحد على وجه التحقيق .

وإنما يأتي فساد الأعمال من تصور الواحد منا أنه يأتيها

وحده .. كما تصور قارون أنه صاحب العلم وصاحب العمل

وصاحب الفضل وقال مختالاً وهو يتحدث عن ماله وجاهه :

﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ . (٧٨ - القصص)

فلم ير غير نفسه ولم يشهد غير علمه الذاتي ونسى أنه

لا يملك علمًا ذاتيًا ولا قدرة ذاتية ، وإنما قدرته وعلمه وذكاؤه كانت كلها هبات سيده وهذا هو الشرك الخفى .. حينما يصبح إله الواحد نفسه وهواه وملكاته .

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ . (٢٣ - الجاثية)
ولهذا يتبرأ العارفون عن أعمالهم الصالحة ويسندونها إلى الله وتوفيقه .

وأكثر من هذا يتبرأ الواحد من إرادته الخيرة ومن نياته الطيبة ويرى أنها من أفضل سيده .. ثم يتبرأ من نفسه التي بين جنبيه .. وينسى ذاته .. ويشهد أنه لا يملك من نفسه إلا العدم وأن كل ماله من الله .. ولا يعود يختار .. وإنما يشهد الله يختار له في كل لحظة .. ثم لا يعود يشهد إلا الله في كل شيء . فذلك هو التوحيد الكامل .. وهذه هي لا إله إلا الله حينما تصبح حياة .

ونرى دعاء ، أبي الحسن الشاذلي في هذه الحالة من الوجد :
رب خذني إليك مني ، وارزقني الفناء عني ، ولا تجعلني مفتوناً بنفسى ، محجوباً بحسى . ونقرأ في المواقف والمخاطبات للنفري ما يقوله الله لعبده العارف « ألق الاختيار ألق المساءلة البتة » ..

فتواب مثل هذا التوحيد الكامل الذي يلقي فيه العبد اختياره ويأخذ باختيار الله في كل شيء .. هو المغفرة الكاملة

وعدم المحاسبة . يقول الله في حديثه القدسي إلى المذنب :
لو جئتني بملء قراب الأرض خطايا ولقيتني لا تشرك بي شيئاً لوجدت عندي ملء قراب الأرض مغفرة .

فتلك ثمرة التوحيد ، وهذا ثواب كلمة لا إله إلا الله ، إذا جعلها الواحد منا حياته وسلوكه ومنهجه ونبضه وتنفسه وذوب قلبه . وهذا ما أراده القرآن الكريم بإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى . وهذا ما أراده رسولنا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، حينما سأله أحدهم أن يوجز له الدين الذي تلقاه عن ربه في كلمتين .. فقال كلمته الجامعة : « قل لا إله إلا الله ثم استقم » ..

وهذه هي الملة الحنيفية ملة أبينا إبراهيم الذي لم يعرف لنفسه إلهاً ولا خالقاً ولا رازقاً ولا شافياً ولا منقداً إلا الله .. والذي ألقى به في النار وظهر له جبريل يسأله حاجته .. فقال له النبي العارف الموحد . أما لك فلا ..

إنه في ساعة الخوف والهول والفرع لا يسأل أحداً إلا ربه .. لأنه لا يرى أحداً يملك له شيئاً حتى ولو كان كبير الملائكة . الروح القدس نفسه .. فلا فاعل في الكون إلا الله .. ولا يملك أحد أن ينفع أو يضر إلا بإذنه

وتلك مرتبة عرفانية لا يصل إليها إلا نبي .
وهذا معنى التوحيد .

أليست هذه أسماؤه ... ! ؟
وهل نحب حينما نحب إلا أسماؤه المحسى حيثما تحققت وأينا
تحققت .

وهل نحب حينما نحب إلا حضرته الإلهية في كل صورة من
صورها .

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى
الأصل .. إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان
يعطله .. ولم يقف عند الأشخاص .. فهو من أهل العزائم
لا تعلق له إلا بربه .. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع
الرجاء وخداع الألوان .

لقد أحب من لا يهجر ، وعشق من لا يفتر ، وتعلق بمن
لا يغيب ، وارتبط بمن لا يموت ، وصاحب من بيده الأمر كله
وساهم في البنك المركزي الذي يخرج منه النقد جميعه .. وهام
بالودود حقاً ذاتا وصفاتا وأفعالا .
وذلك هو مذهب العارفين في الحب .

فهل عرفت ...
وإذا كنت عرفت .. فهى أنت بمستطيع .
وليس كل عارف بمستطيع .

ومذهب العارفين ليس مجرد معرفة .. ولكنه همة واقتدار وكدح
ومغالبة .. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن

الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان ، مانراه في المحبوبة منلما
نراه في قوس قزح ، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح
نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق في
الهواء ... فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب
الجمال .

وهكذا محبوبتك جماها فيما يتجلى عليها من خالقها .. فإذا
انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحاً
لا جاذبية فيه .. إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكاً لها
بالأصالة ، بل كان قرصاً وسلفه .

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هى
بعض ما يتجلى فينا من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود
الرءوف الغفور الرحيم ..

تعلق إلا بما تشهد بصرًا وسمعًا وحواسًا .
أما تعلق الفؤاد بالذي ليس كمثلته شيء فمرتبة عليا
لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة .. وقبل ذلك كله ..
بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله ..

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه
إلا ركوعًا وسجودًا وابتهالاً وعبادة وطاء: وخضوعًا وخشوعًا
وتذللًا وتجردًا وإن هذه مرتبة لا تنال بشهادة جامعية
ولا بماجستير أو دكتوراه ، أو تحصيل عقلي .. ولكنها منزلة رفيعة
لا مدخل إليها إلا بالإخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد
والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين .
تخلع جسدك ونفسك ..

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل .. وإنما أن
تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك ، وأن ترتد
إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية التي تعطي فيها وتجب دون نظر
إلى حظ شخصي أو عائد ذاتي .. فهي حالة عمل وعطاء وبذل
وليست حالة زهد فارغ وتبطل .. وهي في ذروتها حالة فداء
وتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله .. تضحية لا تنظر إلى نيشان
أو نصب تذكاري .. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله
وحده .

ويقول العارفون إن مائة الاستشهاد هي أعلى موائد التكريم

والتخاذل .. والتخلف ..
ذلك هو الحب في مذهب القوم ، وهو غير الحب في مذهب
منتجى أفلام السينما ومؤلفي الرومانتيكيات ، وهو أيضًا غير
الحب عند الكثرة الغالبة من الناس .. حيث الحب هوى ونار
وشهوة وجريمة وصدور عارية ومجوهرات . ولحظت تتألق بالشعر
ثم ما تلبت أن تحبو وتنطفئ وتترك رمادا من الأكاذيب .
﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (٢١ - يوسف)
﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ . (٦٣ - العنكبوت)
﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ . (١١٦ - الأنعام)
﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ﴾ . (٣٦ - يونس)
﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ .
(٢٣ - النجم)

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ .
(٤٤ - الفرقان)

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف أما العارفون فقليل
ما هم ولكن الصحافة التي تخاطب الكثرة والسينما التي تتملق
الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون في الرواج والشعراء الذين

يتبعهم الغاوون يتغنون بألوان أخرى من الحب . ويتيهون معا في
أودية الغفلة التي تنتهي بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت
وسقوط راهب تاييس ومبادل فالنتينو وجرائم آل كابوني وموائد
مونت كارلو .

والمنتجون عندنا أكثر تواضعا فهم يكتفون بكباريات شارع
الهرم .

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل ، ومنذ أيام أنطونيو
وكليوباتره ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان .. ونقرأ في
كتاب الموقى هذه السطور التي كتبها الحكيم المصري منذ خمسة
آلاف عام .

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة
الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها .
إنها معارف قديمة منذ أيام آدم .. وقصة بائنة منذ مقتل
هابيل .

ولكن لا أحد يذكر ... ولا أحد يعتبر .. ولا أحد يتعلم من
الدرس .

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم
وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات .

إن السلام إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت ، ولكن

لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت في
البدروم ...

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود .. وتحمل مشقة الصعود
وشاهد المنظر من فوق ، لبكى ندماً على عمر عاشه في البدروم
بين لذات لا تساوي شيئاً ولكنه الضعف الذي ينخر في الأبدان .
والبشرية تسير من الضعيف إلى الأضعف ، والأجيال الجديدة
أكثر ضعفاً وأكثر تهاوتاً على العاجل البائد من اللذات ، واقرأ
المقال من أوله واسأل نفسك .. من أي مرتبة من البشر أنت ..
هل أنت عارف .. وإذا كنت عارفاً .. فهل أنت بمستطيع .
وابك ماشئت من البكاء فلا شيء يستحق أن تبكيه ..
لا فقرك ولا فشلك ولا تخلفك ولا مرضك .. فكل هذا يمكن
تداركه أما الخطيئة التي تستحق أن تبكيها فهي خطيئة البعد عن
إلهك ..

فإن ضيقت إلهك .. فلا شيء سوف يعوضك .
وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئاً .

ووقعت المرأة في الفخ .. وخلعت ثوب حياتها .. وعرضت
جسمها سلعة تنهشها العيون .
وقالوا لها البيت سجن ، وإرضاع الأطفال تخلف ، وطهى
الطعام بدائية .. مكانك إلى جوار زوجك في المصنع وفي الأتوبيس
وفي الشارع .

وخرجت المرأة من البيت لتباشر ما تصلح له وما لا تصلح
له من أعمال .. وألقت بأطفالها إلى الشغالة .. وقالوا لها جسمك
ملكك أنت حرة فيه بلا حسيب وبلا رقيب وليس لك إلا حياة
واحدة وكل يوم يمضى من أيامك لن يعود .. عيشى حياتك
بالطول وبالعرض .. أنفقى شبابك قبل أن ينفد ، واستثمرى
أنوثتك قبل أن تشيخ ولا تعود لها سوق .. وساهم الفن بدوره
ليروج هذا المفهوم .. ساهمت السينما والمسرح والإذاعة والأغنية
والرقصة والقصيدة .. ودخلت الغواية إلى البيوت من كل باب
وتسربت إلى العقول ، وتخللت الجلد وأشعلت الخيال بسعار
الشهوات ، وأمراضت القلوب بداء الخيانة .. وأصبحت المثل
العليا في المجتمع هى أمثال مارلين مونرو وكلوديا كرينالى ولولو
بريبيدا .

وأصبحت البطلات صاحبات المجد عندنا أمثال شفيقة
القبطية وبمبة كشر ومنيرة المهديّة .
وأصبحت القدوة هى زوجة هربت من بيت الزوجية .

المرأة ..

نظرة على الشارع وعلى فاترينة الأزياء ومجلات الموضة
وصالونات الكوافير وإعلانات الروج والمانيكير وأنواع
الباروكات ، سوف تشعرنا بمدى الجناية التى جنتها الحضارة
المادية العصرية على عقلية المرأة . ومن الوهلة الأولى سوف نفهم
أن هذه الحضارة لم تر فى المرأة إلا دمىة أو لعبة أو متعة ،
لإثارة الرغبة والشهوة وإشعال الخيال .. حتى أساء العطور .
عطر « سكاندال » بمعنى فضيحة .

هكذا أرادوا بالمرأة حينما صمموا لها الفساتين ورسوموا لها
الفتحات على الصدر والظهر ، وحينما حزقوا لها البنطلونات
رضيقوا البلوزات .. واستدرجوا المرأة من غرورها حينما قالوا
لها .. ما أجمل صدرك .. ما أجمل كتفيك .. ما أروع ساقيك ..
ما أكثر جاذبيتك حينما يكون كل هذا عارياً .

وظنت المرأة بنفسها الشطارة والفهلوة فظنت أنها تقدمت على أمها وجدتها حينما اختارت لنفسها هذه المسالك .. والحقيقة أنها استدرجت من حيث لا تدري ، وكانت ضحية الإيحاء والاستهواء وبريق الألفاظ ، وخداع الفن وأجهزة الإعلام ، والرأى العام الموجه الذى تصنعه حضارة مادية وثنية لا تؤمن إلا باللحظة ، ولا تعترف إلا بلذائذ الحس .. الصنم المعبود لكل إنسان فيها هو نفسه وهواه .. والمحراب هو فاترينة البضائع الاستهلاكية ، والهدف الذى من أجله يلهث هو إشباع الحاجات العاجلة ..

ترى كيف كانت نظرة الإسلام للمرأة .. الإسلام المتهم الرجعية والتخلف والبدانة .. الإسلام الذى قالوا عنه إنه أفيون الشعوب ..

لم ينظر الإسلام للمرأة على أنها دمية أو لعبة أو متاع ، بل ما إليها على أنها أم ورأى فيها شريكة عمر لا شريكة ليلة .. عنها القرآن الكريم إنها السكن والمودة والرحمة وقرّة العين ... واختار لها البيت والحجاب والرجل الواحد تعظيماً لها وحفاظاً عليها ..

وثانت خديجة لمحمد عليه الصلاة والسلام أكثر من مجرد لذة لقمة أو شريكة فراش ، فقد شاركته الدعوة والرسالة ،

واحتضنت هموم النبوة .. وكانت الناصح والصديق والأم الرؤوم والسند المعين ..

واشتغلت المرأة بالتمريض ، وصاحب النساء أزواجهن فى الغزوات .. وجلست المرأة للفقه .. وجلست لتلقى العلم .. وأنشدت الخنساء الشعر بين يدي النبى عليه الصلاة والسلام .. وكان يستزيدها قائلاً هيه ياخناس ..

ولم يبيح الإسلام التعدد إلا للضرورة وبشرط العدل .. وما أباح التعدد إلا إثارة لأن تكون المرأة زوجة ثانية بدلاً من أن تكون عشيقة وهذا أكرم ..

ثم جعل القاعدة العامة فى الزواج هى الزوجة الواحدة لأن العدل بين النساء أمر لا يستطيعه الرجال ..

وقد عهد الإسلام إلى الرجل بأن يبني ويعمر ويفتح الأمصار ويتاجر ، ولكنه عهد إلى المرأة بما هو أشرف من كل هذا بحضانة الإنسان وتربيته .

إن الرجل له أن يصنع أى شىء ولكن المرأة وحدها هى التى سوف تصنع الرجال .. وهذا غاية التكريم وغاية الثقة هل هذا هو التخلف .. أم أن التخلف الحقيقى هو أن تسير المرأة نصف عارية حلمها إثارة رجل وغايتها متاع ليلة ، ومثلها الأعلى امرأة هلوك يقتتل حولها السكرارى مثل الراحلة بمبة كشر .. كم خدعوك يا أخت ..

وكم استدرجوك إلى حتفك .. وخلعوك من عرشك وانتزعوك
من خدرك .. وباعوك في أسواق النخاسة رقيقاً تثنى بقدر
ما فيها من لحم
وأنت نصف الأمة .

ثم إنك تلدين لنا النصف الآخر .. فأنت أمة بأسرها ..
ولا يستطيع الرجل أن يقود التطور وحده .
ترى هل أن الأوان لتعيدى النظر .. ترى هل أن الأوان
لتعرفى قدرك وتعرفى دورك .

احترام الجسد

مأساة الإنسان أنه لا يوجد تواز بين نفسه وجسمه ، فالحادثة
التي تقطع ساقه لا تقطع رغبته في الجرى ، والجراحة التي
تستأصل غدته التناسلية لا تستأصل رغبته الجنسية .. وحينما
يضعف بصره بالشيخوخة لا تضعف رغبته في الرؤية ، وعندما
يضعف سمعه لا يزهد في الطرب وحينما يضعف بدنه لا تموت
شهوته .. وإنما العكس .. تسقط الأسنان وتزداد الرغبة في
المضغ .. وتبدأ المهزلة .

ومن لم يؤدب شبابه لن يستطيع أن يؤدب شيخوخته . ومن لم
يتمرس على كبح نفسه صبياً لن يقدر على ذلك كهلاً .. وسوف
تتحول لذته فتصبح عين مهانته إذا طال به الأجل .. ولهذا نرى
الله يطيل آجال بعض المسرفين ليكونوا مهزلة عصورهم ،
وليصبحوا حكاية ونكتة تتندر بها الأجيال للاعتبار .. حينما

يتحول الفجار والفساق العتاة فيصبح الواحد منهم طفلاً يتبول على نفسه وكسيحاً يجبو ومعوقاً يفاأى ويتهته ، وتسقط أسنانه التي سبق أن نبتت بالألم فينخرها السوس لتقع مرة أخرى بالألم ، وتعود أطرافه التي درجت على مشاية فتدرج على عكازين ويتحول الوجيه الذي كان مقصوداً من الكل إلى عالة وشيئاً ثقيلاً وكومة من القمامة يتهرب منها الكل .. ثم لا يعود يزوره أحد .. ثم يموت فلا يشيعه مخلوق .. ولا تبكيه عين .. ولا تفتقده أذن .. ولا يذكره إنسان .. وكأنه دابة نفقت في حفرة .. فذلك هو التنكيس .. الذي ذكره القرآن .
﴿ ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ .

(٦٨ يس) .

والسر في هذه المأساة .. أن النفس لا تشيخ ولا تهزم .. ولا تجرى عليها طوارئ الزمان التي تجرى على الجسد .. فهي من جوهر آخر غير مادة الجسد الكثيفة المركبة التي يطرأ عليها التحلل والفساد .

فالسائق ما يزال محتفظاً بجميع لياقاته وسيظل شاباً على الدوام وإن كانت العربة الشيفروليه الفاخرة قد صدئت آلاتها وأصابها التلف وعجزت عن الحركة .. ولم تعد للسائق حيلة سوى أن يسحبها .. وتلك هي حادثة الشيخوخة .. نفس مازالت بكامل رغباتها وشهواتها .. ولكن لا حيلة لها مع جسد مشلول لم

يعد يطاوعها .. لا حيلة لها سوى أن تسحبه وتجره على كرسى متحرك .

يقول أهل الله في شطحاتهم الصوفية الجميلة : إزالة التعلقات بعد فناء الآلات من المحالات .

فهم قد فهموا شيئاً أكثر من مجرد أن الأجسام آلات لتنفيذ رغبات النفس ، بل هي أشبه بالسلام يمكن أن يستخدمها صاحبها في الصعود أو في الهبوط .. فالمعدة عضو أكل ولكنها أيضاً عضو صيام إذا تسلقت عليها .. وبالمثل الجهاز التناسلي عضو جماع ، ولكنه أيضاً عضو عفة إذا حكمته .. بل إنه لا معنى للعفة بدون وجود نزوع شهواني للأعضاء تقابله بضبط إرادى من ناحية عقلك .

وتلك هي الفرصة التي أسموها .. إزالة التعلقات . وسوف تضع هذه الفرصة بالشيخوخة وانتهاء الأجل .. فلا أمل في إزالة التعلقات بعد فناء الآلات فذلك من المحالات . وبذلك فهموا علاقة النفس بالجسد فهماً جديلاً .. فالنفس تؤدب الجسد ، ولكن الجسد أيضاً يؤدب النفس .. وعملية الردع عملية متبادلة بين الاثنين .

الفرامل المادية مطلوبة لتربية الفرامل السلوكية والعكس صحيح .. والأجل المحدود .. يمكن أن يكون عملية إنفاق وتبديد . أو عملية بناء وتشيد .. وبناء الشخصية النفسية

وتعديلها والارتقاء بها أو الانحطاط بها محتاج إلى الأسمت
الجسدى والحرسانة المسلحة من الخلايا .. الروح محتاجة إلى
الطين .. والطين محتاج للروح .

والنمو النفسى والروحى والتقدم المعنوى والتطهر الخلقى
محتاج لهيكل مادي يعرج عليه صعداً .

وهذا المعنى ينظر الصوفيون إلى الجسد بتقديس واحترام -
ولا يحتقرونه - فهو عندهم محراب النفس .

فالنور فى النهاية يخرج من سلك متوهج .

ونور الشمس يخرج من اندماج ذرات الهيدروجين .

ونور الغاز يخرج من احتراق الزيت .

ونور فضائنا يخرج من احتراق أجسادنا .

فالجسم قنديل يمكن أن يشع فضيلة .

والنظر إلى الجسد باعتباره نجس وخطيئة نظرة غير إسلامية

بل هو أمر مناف للإسلام .. فالإسلام شمولى وجدلى ينظر إلى

الإنسان باعتباره جسد ونفس وروح معاً .. بل إن الإنسان هو

تفاعل الثلاثة معاً فى وقت واحد .. وجسد الإنسان يمكن أن

يكون هو عين روحه فى لحظة .. كما أن روحه يمكن أن تكون عين

جسده فى لحظة أخرى والمسألة تتوقف على النفس هل هى

صاعدة على سلم الهيكل أو هابطة عليه .

والجسد عند الصوفية هو مجرد رسم مطلق للروح ورمز رامز

لأسرارها .. وهو معراجها الذى تصعد عليه للحضرة الإلهية .

وفى حوار شعرى رقيق بين الروح والجسد ، يقول الصوفى

أبو العزائم على لسان الروح مخاطباً الجسد :

أيا رسم من سفلى تصاغ وترتقى

فبين بحال أو صريح كلام

فيجيبه جسده قائلاً :

لولاى ما جاهدت فى الله مخلصاً

ولولاى ما شرفت بالإكرام

فلولا ظلام الليل لم يعرف الضياء

وهو كلام دقيق وعميق ، فلولا المرض لم تعرف الصحة ولولا

السواد لم يعرف البياض . وكل شىء لا يجلوه إلا نقيضه

وبأضدادها تعرف الأشياء .

والجسم والروح كاللوح والقلم والمرأة والوجه وكالشمس

ونورها .

وفى أسرار الروح لا ينتهى الكلام .

يتقاضى عمولة قد تصل إلى عشرات الملايين كما فعل الياباني
تاناكا في صفقة طائرات لوكهيد لا يدخل تحت طائلة الحد .
ومعنى ذلك أن أخطر مفهوم للسرقة في عالمنا العصرى سوف
يخرج من نطاق الحد ومن نص الشريعة ، وسوف يجد اللصوص
الكبار ثغرة واسعة يهربون منها بسرقاتهم ولن يقع إلا اللصوص
الصغار ونشالو الأتوبيس .

وقد أحسن الزميل أحمد بهجت حينما وصف الشريعة بأنها
رحمة ووقاية وصيانة ودفاع عن الضعفاء من بطش الأقوياء ، وأن
الحدود ليست إلا السياج من الأسلاك الشائكة المضروب حول
هذه الخيمة من الرحمة ، وأن الإسلام لم يأت ليزيد في عدد
أصحاب العاهات وأنه لا بد من التدرج ، ولا بد من الانتقال
بالمجتمع أولاً إلى حالة من الكفاية والعدل ، ولا بد من تيسير
الزواج وتسهيل العفة وإيقاف هذا السيل العارم من الغواية
والإثارة الشهوانية التى تقوم بها الأفلام السينمائية قديمها
وحديثها وهذا العرى فى الصورة والأغنية والكلمة قبل أن نطالب
شبابنا بالعفة والفضيلة .. لا بد من إصلاح المناخ الاجتماعى
والإعلامى والفنى وقطع دابر الاستغلال الاقتصادى بأنواعه قبل
أن نأخذ الناس بالشدة وبالعقاب الغليظ .
إن عمر بن الخطاب لم يقطع يداً فى عام المجاعة ، والنبي عليه
الصلاة والسلام لم يقطع يداً فى الحرب وكلاهما كان يطبق

الشريعة متى .. وكيف

الشريعة أصبحت مطلباً شعبياً وأصبحت موضوعاً للمزايدة
بين الأحزاب وأصبحت ورقة انتخابية ، وكل هذا طيب وجميل ..
إن الكل يريد أن يعود إلى الله ، والكل يتسابق إلى المنهج
الإلهى .. هذا حسن .. ولكن البعض يشعر بالإشفاق .. وهناك
أقلام كثيرة تطالب بالوضوح .. وعندها حق .. فقد اختلف
العصر واختلفت أنواع السرقات ويخشى البعض أن تقطع اليد
التي تسرق عشرة جنيهاً ، وتعفى اليد التي تختلس المليون جنية
لأن اجتهاد الفقهاء أعفى الاختلاس من الحد باعتباره لا يدخل
تحت النص الحرفى لكلمة سرقة كما أن السرقة من مال عام
أعفيت هى الأخرى من الحد لوجود شبهة الظلم فى المال
الحكومى العام مما يجعل لمن يسرقه شبهة حق فيه .. وبالتالي
لا يدخل التزييف والتزوير والرشوة .. كما أن الموظف الذى

الشريعة ، لأن كليهما فهم الشريعة بمعناها الحقيقي إنها رحمة ..
لقد اجتهد الاثنان في فهم الشريعة وفي فهم ظروف تطبيقها ..
ومطلوب من فقهاءنا أن يجتهدوا وأن يحاولوا أن يتفهموا الظروف
الجديدة والأشكال الجديدة الخطيرة للسرقة في عصرنا .

إننا نعيش بالفعل في عصر تاناكا .. وأخطر أنواع السرقة
هي الرشوة والعمولة والاختلاس ونهب المال العام ، فإذا أخرجنا
هذه الجرائم من عقوبة الحد اتباعاً منا للسلف وتقليداً للمفهوم
السلفي في تفسير كلمة سرقة ، فإنه يكون تقليداً عن عمية
واتباعاً عن جهل ، وذلك لاختلاف نوعيات الجرائم واختلاف
الظروف في العصرين .

ولو أننا أطلقنا تلك الأفلام الجنسية المسعورة على شبابنا
وكلها أفلام تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف ، وتحض على الزنا
جهاًراً نهاراً ، ثم أشهرنا حد الرجم فوق الرقاب لظلمنا
وما عدلنا . ولا يمكن أن نحول مجتمعاً داعراً إلى مجتمع فاضل في
يوم وليلة بمرسوم وزارى ولا يمكن أن نحول الهبوط الفنى إلى
سمو فنى في لحظة بقانون ولا أن نقلب البرامج الخفيفة إلى برامج
دسمة جادة في طرفة عين .. وإنما لابد من التدرج .

وفي الفقه شىء يسمونه شيوع البلوى .. إن البلوى إذا
شاعت وعمت فإنها تكون مدعاة للاستثناء ومدعاة إلى الإصلاح
المتدرج .

وقديماً كان شرب الخمر بلوى عامة وشائعة في مجتمع
القرشى ، ولهذا نرى أن الآيات التي نزلت بالتحريم نزلت
متدرجة .. في البداية نزلت آيات تقول إن للخمر فوئيه وإن لها
مضار وأن ضرها أكبر من نفعها .. ثم نزلت الآيات التي تحرم
شرب الخمر وقت الصلاة ثم أخيراً نزلت الآيات التي تحرم شرب
الخمر إطلاقاً .

وقد كان سبب هذا التدرج في التحريم هو شيوع البلوى
وكذلك كان إلغاء الرق في الإسلام بالتصفيه التدريجية بالعتق
وأخذ الفدية من الأسير أو إطلاقه دون استرقاق والسبب أن
الرق كان هو الآخر بلاء شائعاً وكان تحريمه بضربة واحدة باترة
معناها خروج ألوف المتعطلين والمتسولين بلا عمل سوى السرقة
أو الدعارة .. ولأن إلغاء الرق كان أمراً مستحيلاً من طرف
واحد فقد كان المسلمون والمشركون طرفين في حرب سجل
ولو أن المسلمين امتنعوا عن استرقاق الأسرى من طرفهم دون
معاملة مساوية في الطرف الآخر لكان هذا الشرع ظمناً للمسلمين
الذين يقعون أسرى وأرقاء على الطرف الآخر .. إن شيوع
البلوى كان دائماً عاملاً هاماً في التشريع ودافعاً إلى التدرج في
الإصلاح ..

إن الحقيقة التي يجب أن يفتن لها الجميع أن الشباب لم
ينحرف وحده ولكن البيئة انحرفت والمناخ الاجتماعى انحرف

والفن انحرف والفكر انحرف والسياسة انحرفت .. وفي داخل البرلمان وجدنا تجار مخدرات يعتصمون بالحصانة البرلمانية وفيهم زعامات .. إننا بالفعل نعيش في عصر تاناكا .. وكبار اللصوص هم الأولى بقطع الأيدي ومنتجو الأفلام الجنسية هم الأولى بالرجم ومافيا المخدرات وبعضهم في أعلى المناصب هم الأولى بالشنق وإذا ناديتهم بالشريعة فأنا أقول نعم وأنا أنادي معكم .. ولكني أسأل أولاً .. من يقطع يد من في هذه الغابة ..

ومن منكم لم يرتكب خطيئة ليكون الرامي بأول حجر .. أقول الشريعة واجبة وهي حق ، ولكن الطريق إليها ليس العقاب وحده ولكن الإصلاح أولاً .. لا بد من إصلاح اجتماعي يجعل الفضيلة ممكنة قبل أن نعاقب تاركها .. ومن ثم لا بد من التدرج والأخذ بمبدأ تطبيق الشريعة على مراحل لأن إصلاح المناخ الاجتماعي والفني والفكري والسياسي والاقتصادي لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة .

هذه نظرة واقعية أعلم أنها لن تعجب هؤلاء الذين يحلمون بإصلاح كل شيء بانقلاب ويتصورون أن المدافع الرشاشة يمكن أن تحسم كل شيء وتأتي بالشريعة على ظهور الدبابات ، وأن الفضائل يمكن أن تصنع قهراً وأن الشرف يمكن أن يولد بالرعب .

وأقول لهؤلاء إن العنف لا يلد إلا النفاق والكذب والتعلق

وأن الخوف لا يلد إلا السلبية واللامبالاة .. وأن القوة لا تلد إلا مراكز قوة تأتي ومعها الإذلال والإرهاب والتنكيل ، وليس الحرية والكرامة والعزة . ولقد رأينا بأعيننا ماذا يفعل الجالسون في مراكز القوة . ولن تأتي الشريعة بهذه الوسائل أبداً ، لأن الشريعة رحمة ومحبة ، ولا وسائل لتحقيقها إلا الرحمة والمحبة . الشريعة هي قمة الحكمة الربانية .. وهي تحتاج إلى ذروة الحكمة البشرية في الفهم وفي التطبيق .. وأي كلام غير ذلك غوغائية ومزايدات حزبية وبالونات دخان للتعمية ، وأي تطبيق للشريعة بدون فهم لن يكون سوى إجراءات مظهرية ، وبمجرد مرهم سطحي لخراج معبأ بالصديد .

إن التقوى هي روح الأمر كله .

وحينها تزداد حرارة الإيمان وتسكن القلوب إلى ربها لا يعود الواحد منا يختار إلا ما اختار له ربه ويصبح هواه فيما شرعه له الله دون تكلف .

وحسن التربية في البيت والمدرسة والجامعة والمصنع .
وحسن القدوة في الأب والمدرس ورئيس العمل وزعيم الحزب .

وحسن الدعوة إلى منهج الله بالقول الحسن والسلوك

الحسن .

كل هذه وسائل أكثر فعالية في تطبيق الشريعة من المزايدات

الانتخابية ، وفي القرآن يعلمنا ربنا قائلاً في آياته :
﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ .

ولن تجدوا واحداً من الخمسة والأربعين مليوناً يرفض الحسن
من كل شيء ، والشريعة هي الحسن من كل شيء ، بل هي
الأحسن من كل شيء .

عن التصوف

يحكون لنا عن الحلاج الذي كان يقف في شوارع بغداد
هاتفاً .. أنا الله .. سبحاني ما أعظم شأنى .. يا خلق الله ما في
الجبة غير الله ..

وكيف تصيد له قضاياه هذه الكلمات وأمثالها وحكموا عليه
بالإعدام بتهمة الكفر .

ويعتذر الصوفية عن الرجل فيقولون : إن مثل هذا الكلام
لا يصح أن يؤخذ على علته .. فالحلاج صوفي من أهل المواجد
والأحوال .

وهو لم يكن في طوره حينما كان ينطق الكلمات ، وإنما كان في
حالة من الوجد والحب والوله ، وقد بلغ به حبه لله إلى ذروة فناء
في محبوبه فما عاد يدرك لنفسه وجوداً وغاب تماماً عن نفسه
فأصبح الله هو الذي يتكلم على لسانه فيقول : أنا الله .

ويسمون هذه اللحظة لحظة الشهود ... أو التجلى حينها
ينجلي الله على قلب عبده فينسحق العبد ويفنى ويصبح عدما
ويصبح الحضور لله ولا سواه ، والكلمة لله ولا سواه .
وشأنه في ذلك شأن المجدوب المسلوب اللب والفؤاد
والعقل ... والصوفي كذلك يجذب إلى الحضرة الجلالية جذبا
لا حيلة له فيه فيرفع إلى حال من الرؤية وإلى جرعة من الحق
أكبر من طاقته ، فتفقد العقل والقدرة وتذروه تراباً مثل الجبل
الذي اندك دكاً ، ومرسى الذي خر صعقاً .

وتمتلى كتب الصوفية بمثل هذه المواقف ، وبمثل هذه المواقف
والحالات وتستفيض في وصفها .. ولا نملك حياها إلا التحفظ
الشديد .

ورأى أن هذا الجانب من الصوفية ، هو واد كثير المهالك ..
ومزلق خطر .. وأن السير فيه يضر أكثر مما ينفع .
وأخطر ما في هذا المزلق أنه يمكن أن يجبر الصوفي إلى فكرة
وحدة الوجود .. وهى الفكرة التى تقوم عليها الفلسفة الهندية ،
والتي تقول بوحدة الخالق والمخلوق ، وأن الله حال في مخلوقاته
متحد بهم .. وأنه هو وهم واحد .. فهو القاتل والقتيل والسكين ،
وهو الذى خلقهم معاً فى وقت واحد .. وفى جراب واحد .. بمثل
ما يقول الحلاج .. إن الله فى الجبة .. وهو كلام إذا مددناه على
استقامته بالطريقة الفلسفية ينتهى بنا إلى نفى وجود الله

لا إثباته .. فكل ما نعترف به حينئذ هو مجموع ما نرى من
وجود نعتقد أن هو فى جملته هو الله .. وهى عبارة مهذبة للإيمان
بالوجود الموجود ونفى ما عداه أى نفى الله فى ذات الوقت ..
ولهذا تلتقى الفلسفة البوذية والهندية مع الفكر المادى .
وأستبعد أن يكون بوذا لو أنه كان نبياً بحق أن يكون قد قال
هذا الكلام .. وربما يكون حاله كحال المسيح الذى شوه اليهود
تعاليمه ، وزيفوا أقواله من بعده وادعوا أنه قال أنا الرب ..
أنا الله .

ولهذا يحرص الصوفية كلما ذكر الحلاج على توضيح أقواله
بهذه المذكرة التفسيرية التى يقولون فيها إنه كان غائباً عن نفسه
حينما كان يتكلم .

وأهم من هذه المذكرة التفسيرية فى نظرى أن نحاول فهم الله
كما قدم لنا نفسه فى القرآن .
والله فى القرآن هو المتعالى .

هو متعال على خلقه ، كما يتعالى الصانع على صنعته ، وكما
يتعالى الفاعل على المفعول .. وهو ليس فى « وحدة وجود » مع
صنعته ، وليس متحداً بها ولا حالاً فيها .. كما تصنع أنت الموتور
فلا تكون متحداً به ولا حالاً فيه .. وإنما تكون متعالياً عليه .. لو
كان للموتور لسان ، ولو أنه تكلم وقال لن أتحرك .. فإنك تقول
له بل تتحرك وتوصل أسلاكه بالكهرباء فتديره برغم أنفه ..

فأنت متعال عليه .. وأنت القاهر بالنسبة له .

وبالمثل الله في القرآن هو القاهر فوق عباده . و « فوق » هنا لا تعنى المكان ، وإنما تعنى فوقية في الرتبة .. لأن الله متعال على المكان أيضا .. وهو أيضا متعال على الزمان ، فهو لا يتحيز في حيز ولا هو يتزمن بفترة .. ولهذا كان الأول والآخِر والظاهر والباطن .. الأول قبل الزمان وقبل الوجود لأنه خالق للزمان والوجود .. والآخِر بعد انتهاء الزمان وانتهاء الوجود ، لأنه الباقي بعد الكل . وهو الظاهر . وليس معنى ذلك أنه الحلاج أو غير الحلاج وإنما المقصود بكونه « الظاهر والباطن » .. إن الظاهر هو فعله .. والباطن ذاته .. وكل ما نرى ويظهر لنا ويجرى علينا هو بعض أفعاله .. فكلمة الظاهر هنا مقصود بها وجه الشمول .. الظاهر اليوم وبالأمس وعبر القرون الماضية والقرون الآتية كل ذلك فعله . ثم من قبل ذلك هو كائن فهو الأول ومن بعد ذلك يكون فهو الآخر .

والاتحاد بالله لا يقول به الإسلام لأنه غير ممكن .. وإنما الإسلام يقول بالقرب والبعد والجمع والفرق .. فهناك المقربون مثل الأنبياء والشهداء والصديقين .. وهناك المبعدون مثل الكفار .

والصالحون مجموعون على الله .

والمجرمون مفرقون عنه .

وهذا هو الجمع والفرق .

أما الاتحاد والوحدة والحلول فهي أمور يتنزه عنها الله .. فهو العلى المتعالى عن هذه الصفات .

والله في القرآن هو الأحد .. والفرق بين الأحد والواحد أن الأحد لا ينقسم ولا يتجزأ وليس له بعض أو نصف .

ولهذا فهو « السلام » لأنه لا ينقسم على نفسه ... ولأنه يجمع الأضداد في تكامل لا تناقض فيه .. فهو المعز المذل الباسط القابض الرافع الخافض النافع الضار .. هو جامع هذه الأضداد دون تناقض ودون تضارع ، فيجمع في ذاته النفع والضر والجبروت والرحمة في وحدة سلام لا تقبل القسمة .. وهى ذروة في الكمال لا تصل إليها إفهامنا .

وقد نفهم نحن هذه الوحدة الداخلية بعض الشيء حينما نتوحد نحن أيضاً في داخلنا .. فتكون نية الواحدة منا مثل قولنا مثل فعله ، فيكون واحداً قلباً وعقلاً وعاطفة وعملاً .. وهو ما نصير إليه بالتوحيد وعبادة الواحد والتزام الطريق .

والله في القرآن هو الحى وما سواه هالك أو صائر إلى هلاك .. وإذا كنا نحيا اليوم فإنما نحيا به بمدده فهو الحى الذى به الحياة فإذا انقطع مدده لم يبق لنا من وجودنا إلا العدم . وهذا معنى كلمة « قيوم » أى أنه يقيمنا .. وأنا به نقوم ، كما أن الأفلاك والنجوم مسوكة بقبضته جارية بقوانينه فهو قيومها .. وهو قيوم كل شيء .. قيوم هذه الحياة ، وقيوم الحياة

الأخرى حينما يقيمنا من الموت فلا يمكن أن يقوم أى شىء
أو يوجد إلا بفضلله .

وهو البصير بلا بصر ، والسميع بلا سمع ، والمتكلم بلا كلام
وبلا حروف .. فالله لا يبصر بعين كما نبصر نحن ، ولا يسمع
بأذن ولا يتكلم بلسان .. وإنما الله يبصر بذاته ويسمع بذاته
ويتكلم بذاته ، بلا أدوات وبلا حروف وبلا لغة .. وكلمة الله
روح وإرادة ومشئئة ، يقول لنا الله فى القرآن إن المسيح « كلمته
ألقاها إلى مريم وروح منه » فالمسيح كلمته كما أن آدم كلمته .
وهو الخالق البارئ المصور . الخالق فى الملكوت حيث خلقنا
نفوساً بكلماته وعلمه . والبارئ حينما أعطى تلك النفوس رخصة
الوجود ، كما يعطى الملك براءة الوسام ، فيصبح للمواطن الحق
فى أن يلبسه والرخصة فى حمله .. وهو رمز لإطلاق تلك النفوس
من قبضته .

والمصور حينما أنزل تلك النفوس إلى الدنيا بأمره وصور لها
قوالبها فى الأرحام .. ﴿ يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ .
وهو النور .

ونور الله هو ما يقذف فى الضمائر والسرائر ، وهو نور
الفطرة والبديهة ، ونور العقل الذى يكشف به الحق من
الباطل .. ولا يقصد به نور الشمس أو الكهرباء أو النجوم ،
فكل تلك الأنوار ظواهر مخلوقة مصيرها إلى الانطفاء .

وهو الصمد من الصمود والثبات والاستقرار حيث كل شىء
من حوله يضطرب ويتغير ، وهو الصمد الذى لا يتغير
ولا يضطرب كالمرساة وسط البحر يموج من حولها البحر
ويضطرب ولا ملاذ للسفن من هذا الاضطراب إلا اللجوء إلى
المرساة واللواذ بها ، وهو لهذا الصمد الذى يصمد إليه ويلجأ إليه
من دوامة الخيالات والأوهام والأضاليل التى اسمها الدنيا .

والصمد بمعنى المصمت المتدامج .. فكل شىء مخلخل له جوف
إلا هو .. والمادة كلها مخلخلة والذرة مخلخلة وجميع مكونات الذرة
مخلخلة ، لأنها تركيبات من أجزاء مألها العطب والفساد
والانحلال .. ماعدا هو .. الجوهر الفرد .. الذى لا يتألف من
أجزاء ولا عناصر ، المصمت بلا جوف .. الأحد الصمد .
وهو الرحمن من مطلق الرحمة .. فيرحم بالعذاب وبالعقاب
كما تضرب ابنك المذنب رحمة له وتأديباً .
وهو الرحيم بالمعنى الخاص والخالص للرحمة فيمنحها خالصة
لأحبابه .

وهو اللطيف أى الخفى الشديد الخفاء فى أ
فيخيل لك أنك أنت الذى تفعل ، ويخترع
الذى تخترع . لأنه أحال عليك الآ
وأعطاك المواد الخام وأعطاك العقل

والخشب وأهملك قوانين الطفو فاخترعت السفينة وهي في الحقيقة من خلقه .

﴿ وله الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ .

(٢٤ - الرحمن)

﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ﴾ .

(٣٢ - إبراهيم)

ولكنه يعمل من وراء حجاب الأسباب فيخيل إليك أنك أنت الذي تعمل .

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

وهو يفعل ذلك بلطف وخفاء واستسرار لا يدرك .

وبين كونك مخيراً وكونك مسيراً خيط دقيق كالشعرة لا يبين .

فأنت مخير في النية والضمير والسريرة .. ثم هو في الخارج يجرى عليك الأسباب والمقادير لتخرج ما تكتمه وتلبس بحقيقتك .

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

وهذا غاية اللطف والخفاء .

في هذا البحر المليء بالخفايا يخوض الصوفية ولهذا تكثر بينهم المهالك ويضل منهم الكثير ويختلط على الواحد منهم الحال في لحظة الوجد والجذب فيقول : « أنا الله » .

ولهذا نصح بعض الأئمة من المسلمين بتجنب طرق الصوفية .. وقالوا في ذلك إن النبي الذي أمرنا جميعاً بأن نتخذ منه أسوة ، لم يعرف عنه حال الجذب ولا كان من أهل المواجهيد ، ولم يذكر لنا التاريخ أنه راح مرة في غيبوبة الحب هذه ولا كذلك عيسى ولا إبراهيم وهو الخليل الذي كان يكلمه الله كما يكلم الخليل خليله .. وحينما خر موسى صعقاً عندما طلب رؤية الله كان ذلك من الله تحذيراً وعقاباً لأن موسى طلب ما لا يجوز طلبه .

وهؤلاء هم الأنبياء أهل القدوة والأسوة والاتباع .

والمؤمن الصالح في الإسلام هو رجل عامل وليس رجلاً معتزلاً متأملاً في الخلوات .. ولو كان أبو بكر وعمر صوفيين من طراز الحلاج لما قام للإسلام بنيان ولما ارتفعت له أركان شداد . ويرد الغزالي على ذلك فيقول إن الصوفي بالفعل ليس هو النموذج العام الذي يطلب من المسلم اتباعه .. وعامة المسلمين غير مندوبين إلى الصوفية .. والصوفية في النهاية هم خاصة الخاصة وقلة القلة من القادرين المؤهلين على الجهاد الأكبر بترويض النفس ومخالفة الهوى والسلوك في بحار الغيوب واستطلاع الأعماق والأسرار .. وقد أراد الله أن تكون كثرة الناس من أهل الغفلة ليشتغلوا بعمارة الدنيا .. واستصفي القلة وقلة القلة لنفسه ..

والنبي عاش الصوفية والعزلة في مرحلة غار حراء التي استمرت أكثر من أربع عشرة سنة .. وأقواله وأحاديثه تشهد على الجانب الصوفي في شخصيته .

وبالمثل نجد هذا الجانب الصوفي واضحاً في رجل مثل علي بن أبي طالب .

ونجد عيسى يعتزل الناس في خلوة تأمل مع نفسه يقضيها في البرية قبل أن يعود فينزل للناس .

ونجد موسى في خلوة الأربعين يوماً ينفذ مشيئة إلهية وشرطاً للتأهل والاستعداد ليصل إلى اللياقة والصلاحية الروحية لنزول الألواح عليه .

إن الجانب الصوفي كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من النبوة وإنما اختلف الأنبياء عن غيرهم في كمال شخصياتهم فجمعوا بين الفكر والعمل .. وبين العزلة عن الناس والنزول إلى الناس .

وهذا الكمال لا يتيسر للكثيرين .. وإنما نجد في الكثرة طغيان جانب على جانب .. فنجد من تطفئ على شخصيته خصائص العمل ومن تطفئ على شخصيته خصائص العزلة والتأمل .

ووجود الصوفي المتأمل والكاتب كالغزالي وابن عطاء الله والجيلي ، لا يمنع قيام رجل الفعل والعمل والقيادة كعمر وأبي بكر وخالد بن الوليد .

وإنما هو التنوع الضروري والطبيعي للشخصية الإنسانية كما تتنوع بصمات الأصابع .. ولا يحق لنا أن نصادر قيام نوع ونوجب قيام نوع .. بحجة أن هذا مع الإسلام وهذا ضده .. فإنها تكون مصادرة باطلة حتى من ناحية العقيدة .. فلم يخل القرآن من اللمحات الصوفية .. فهو في أكثر من مكان يصف الدنيا بأنها هلو ولعب ، وأنها حصاد الغرور ، ومحضنا على الزهد في بريقتها .. وهي نظرة صوفية .

وهو في عالم الشهادة لا يرى مشهوداً إلا الله وأفعاله ويقول لنا :

﴿ أيتها تولوا فثم وجه الله ﴾ .

.. ويأمرنا أن نشهد بأن لا إله إلا الله .. وبأن لا مشهود بحق سواه .. ولا موجود بحق سواه .. وهي نظرة صوفية . ومن أساء الله أنه .. « الحق » .. وما سواه باطل وهي نظرة صوفية .

الصوفية إذن في جوهر الدين وليست ابتداءً في الدين . ويصح أن نسميها درجة تخصص .. يحرص أصحابه على استصفاء الدين من مرتبة الطقوسية إلى مرتبة الحب ، فتكون العبادة عندهم حباً لا طقساً .

وهم يبحثون عن الحقيقة لا لينقضوا بها الشريعة ليؤكدوها ويزيدوها تشبيهاً .. والصوفي الحق سلوكه عين

وإن هام قلبه مع الحقيقة .

ومع ذلك يجب أن نعترف أن الصوفي السالك يمكن أن يضل وتختلط عليه الأمور ويكون ضرره أكثر من نفعه .
والقائلون بأن أودية الصوفية هي أودية المهالك .. عندهم بعض الحق .. فالصوفي سالك في بحار الغيب . وهو لهذا معرض لكل الأخطار ، وأهون هذه الأخطار . الفرق في التيه .. والجذب .. وذهاب العقل .

ولكن الناجي الفائز في هذه المسالك هو الناطق بالدرر المتحدث بالجواهر .

ونجد هذه الدرر والجواهر في تراث الصوفية الذي خلفه لنا الأئمة العظام .. ولن نجد الواصل الحق منهم يقول : « أنا الله » .. بل يقول : « هو الله » .. فهذه نهاية المطاف في رحلة الحج في دروب الغيب .

« هو الله »

« هو »

كلمة « هو »

التي لا تعنى أكثر من مجرد إشارة إلى ما تعجز عنه جميع الألفاظ والعبارات .. وما لا تحيط به اللغات .

« هو » .

محض إشارة .

ثم تسكت الألسن .. وتجف الأقلام .. وترفع الصحف .. ثم لا تبقى إلا العينان تدمعان بما لا سبيل إلى التعبير عنه .

سبحانه وتعالى عما يصفون .
فهو لا يوصف .. وما وصف نفسه إلا تنزلاً لتدركه أفهامنا .. وما أطلق على نفسه الأسماء إلا تنزلاً منه لندعوه .

ولكنه فوق الأسماء والصفات .. فلا هو روح ولا هو جسد ولا هو مادة ولا هو صورة ولا هو معنى ولا هو فكرة ولا هو شيء .. ولا هو بمن يحل في زمان ولا هو بمن يتحيز في مكان ولا هو بمن يتحد أو يمتزج أو ينقسم أو يتعدد .. إنما هو غير كل هذا .

وهو متعال على كل ما نعرف .

وهو غيب الغيب .

وغاية ما يصل إليه العقل في تصور الله هو .. البهت ..

والحيرة .. والعجز ..

وذروة المعرفة هي العجز عن المعرفة لهذا الأمر الذي يملأ

القلب ولا يجد له اللسان وصفاً ولا تعبيراً .

لا سبيل إليه إلا بالإشارة .

ولهذا حفل القرآن بالإشارات .. الم .. الر .. حم .. ن ..

ص .. ق .. وذلك حينما تقطعت أنفاس العبارات عن بلوغ

مراميه .. فلم تبق إلا الإيماء .. والحروف المرتجفة التي تشير إلى الإبهام .
« هو »

نهاية الرحلة التي يحج فيها العقل إلى الحقيقة . وهو إذ يبلغها .. لا يبقى له إلا أن يطوف عريان العقل خاشع القلب .. مسلم الحواس .. وقد أسلم الفعل للفاعل .. وأسلمت الإرادة للمريد .. وأسلمت القوة للقوى .. وأسلم الحول لمن لا حول ولا قوة إلا به .

ونسأل المنكرين ..

من هم هؤلاء الذين وصفهم القرآن بأنهم :
- يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً .
- والذين قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون .

- والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض .

- والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .
- والذين إذا سمعوا آياته خرّوا إلى الأذقان سجداً وبُكياً .
- والذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

- والذين اقتحموا العقبة وفكروا الرقبة وأطعموا المسكين واليتيم في يوم ذي مسغبة ويوم ذي متربة .
- والذين أينما تولوا فليس ثمة إلا وجه الله ما يرزقهم أمامهم .

- والذين يذكرون الله في أنفسهم تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول في الغدو والآصال ولا يغفلون مع الغافلين .

- والذين يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا يعدون بأعينهم عنهم يريدون زينة الحياة الدنيا ولا يطيعون من أغفل الله قلوبهم عن ذكره .
- والذين لا يرون في الدنيا إلا أنها لهو ولعب وتفاخر وتكاثر

في الأموال والأولاد وأنها مثل زرع أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً .

- والذين التزموا أمر القرآن ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

- والذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار ، والذين هم عنده لمن المصطفين الأخيار .

أليست كل هذه الصفات في مجموعها هي ما ينطبق على الخلق الصوفي ، والمنهج الصوفي في التجرد وإخلاص الوجه لله وتفريغ القلب من شواغل الدنيا وجمع الهمة في الذكر ، وتعمير الوقت بالعبادة سجوداً وركوعاً وقياماً وتهجداً وبكاءً ودعاءً .

فلماذا لا يطبق بعض القوم ذكر التصوف والصوفية ويرون فيها بدعاً من الأمر .

وإذا تركنا اللفظة نفسها .. لفظة الصوفية .. أليس المضمون والمحتوى هو ذات المضمون والمحتوى الذى وصفه القرآن . ولا نقصد بالصوفية فى كلامنا أهل الخرق والشعوذات والمتسولين الذين رفضوا الأخذ بالأسباب ، وغالوا فى الزهد وصاموا الدهر وانقطعوا عن النساء ، فتلك انحرافات نجدها فى كل مذهب وفى كل ملة وهى لا تدين المذهب ولكنها تدين أصحابها .. فالمشعوذون فى الطب ليسوا حجة على الطب ولكنهم حجة على أنفسهم .. ومازال الطب علماً محترماً برغم أن بعض أهله انحرفوا واتخذوه تجارة وتدجيلاً .. ولا خلاف أننا ضد المنحرفين من كل ملة وقد كتبنا وأفضنا فى انحرافات بعض لصوفيين ورفضناهم .

ولكن إذا قصرنا كلامنا على المعنى المقصود من الصوفية كما علمناها من الكبار الكمل أمثال الشاذلى والرفاعى والنفرى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم من الأكابر من أهل المجاهدات .. فنحن فى صميم الإسلام لم نخرج عنه ، بل نحن فى القلب من العقيدة الإسلامية ونحن فى المرتبة العليا التى قال عنها الحديث إنها مرتبة الإحسان .. وذلك بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه . فإنه يراك .

ثم من هم أقدر الناس على تجسيد كلمة الشهادة : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

من ترتفع عندهم العقيدة إلى درجة الشهود .. بل وحدة الشهود . فلا يرون إلا الله فى جميع ما يجرى حولهم من أحكام . إن كلمة « أشهد » تكاد تخص الصوفية وتصنفهم وحدهم فإن عموم الناس يرددون كلمة « أشهد أن لا إله إلا الله » بمعنى « أقر أن لا إله إلا الله » .. ولكن « أشهد » فيها خصوص معنى أقوى من مجرد الإقرار المنطقى أو العقلى ، فهى شهود بالعين وبالقلب وذلك أمر لا يستطيع أن يباشره إلا صوفى بلغ فى إسلامه مرتبة الإحسان .. فهو يعبد الله كأنه يراه .. وتفطن فى كلمة الحديث .. « كأنه يراه » .. إنه يحكى عن « نوع شهود » .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وتلك هى المرتبة الأدنى التى يمكن أن يشترك فيها الكثرة الباقية من المسلمين المحسنين . إن الصوفيين المخلصين قد استصفوا بالفعل من القرآن أعلى مراتبه وتنطبق عليهم الآية ..

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾
ومن الواضح أن القرآن يشتمل على أوامر للعامة وأوامر للخاصة الذين يريدون القربى والزلفى .
للأولين يقول : اتقوا الله ما استطعتم .
وللآخرين يقول : اتقوا الله حق تقاته .

والصوفيون الكمل من أهل الله يختارون أحسن ما أنزل إليهم من الأمر ليكونوا أكثر قربي وزلفى ، وليكونوا أهل الله الذين هم أهله .. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .
هنا بالحق المجال الذى يستحق أن يتنافس فيه الناس ، وليس مكاسب الدنيا وعرضها الزائل .. فذلك هو المجال الشيطاني للتنافس .. وذلك هو التنافس السهل .. ولا يثمر إلا عرضاً زائلاً .

أما التنافس الآخر على رضا الله والقرب منه فهو الذى يثمر نعيماً باقياً ورضواناً أكبر لا حد له ولا منتهى .
وهم أقرب ما يكونون إلى الملائكة .. الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

إن التراث الصوفى فى الإسلام ، خاصة التراث الصوفى السنى الملتزم ، القائم على الشريعة ، لا ينحرف بالإسلام .. ولكنه يؤكد ويشرحه .. وهو تنمة ومذكرة إيضاحية مهمة عن معنى الدين ، ومعنى الإسلام علماً وعملاً ومباشرة وقدوة .. وهو جدير منا بأن نقرأه ونتفهمه ونحققه ونستصفى أحسن ما فيه .. ففيه من الجواهر والآلى والمراجين ما لا يستطيع أن يبلغه إلا الغواصون الذين أفردهم الله وعلمهم كيف تكون ملاحظة الأعماق ، واصطياد الحقائق .

الفردية والتفرد

عرفنا بصمة الأصبع كعلامة مميزة لشخصية صاحبها وعرفنا أنه منذ آدم لم تتشابه بصمتان حتى بين أبناء البطن الواحدة وحتى بين التوائم . واليوم نعرف أن للأسنان بصمة ، وكذلك للشفتين بصمة ، وللأذن بصمة وللصوت بصمة .. بل إن البروتين الذى تتكون منه خلايانا له فى كل منا بصمة والكرات البيضاء فى دماننا هى الأخرى مدموغة ومبصومة بعلامات مميزة على سطحها بحيث يتميز كل واحد فينا بباركة وهوية مادية ينفرد بها .
وهذا التوكيد من الخالق على فردية كل واحد منا دليل على أصالة هذه الفردية وأنها غير قابلة للتدوبان ولا يصح لها أن تذوب فى المجموع ، إلا إذا قرر صاحبها أن يضحى بها ويتنازل عنها ويذيبها فعلاً فى مبدأ أو فى رسالة أو فى هدف شريف أو هدف غوغائى ، وإن هذه الفردية هى أمانتنا وأنا مسئولون عنها يوم

القيامة .. ولا عذر لمن يتعلل بالتبعية ولا حجة لمن يقول :
﴿ إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا
بما فعل المبطلون ﴾ .

(١٧٣ - الأعراف)

﴿ قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين ﴾ . (٥٣ - الأنبياء)
﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا ﴾

(٢١ - لقمان)

﴿ إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾

(٢٣ - الزخرف)

﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا ﴾

(١٠٤ - المائدة)

فكل هذه الحجج باطلة وكل هذه الأعذار لا تقبل لأن الله
أفرد كل واحد فينا بإرادة حرة جعل لها علواً على البيئته
والظروف وعلى الجماعة لا يغلب هذه الإرادة الفردية غالب
إلا إذا تنازل عنها صاحبها طوعاً واختار عدم الاختيار ، وأثر
التقليد والتبعية وأثر أن يكون عجينة في يد غيره يشكله كيف
يشاء وحينئذ لا يحق له أن يقول : قهرني فلان .. فحجة الله
حينئذ .. بل أنت الذى أعطيت له نفسك .. وأنت الذى اخترت
عدم الاختيار .. وأنت الذى فرطت فى الأمانة التى فى عنقك ..
والأمانة فى فردانيتك وخصوصيتك التى فطرتك عليها مادياً
ونفسياً وروحياً .. فالسجن الذى قيد يديك ورجليك لم يكن

ليستطيع أن يطمس على قلبك أو يقيد نيتك ، فلماذا لم ترابط
على الحق ولو بقلبك ولو فى خاصة سرى ، وقد أعطيتك سريرة
لا يقدر عليها الحديد ولا النار ، ولا سلطان لشیطان عليها ولو
كان من مرده الجن .. وقد قال الله للشیطان من قبل :
﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

(٦٥ - الاسراء) .

حينئذ تبطل حجة الكافرين وتخرس ألسنة المجرمين وتعترف
الأيدى والأرجل على أصحابها ويظهر الحق ويزهق الباطل .
ويقول الله تعالى :

﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من
تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه
ذلك الفوز العظيم ﴾ . (١١٩ - المائدة)

وهذا منتهى التدليل والتشريف للصادقين أن يقال عنهم إنهم
يرضون عن ربهم وهو سبحانه وتعالى منزه عن حكمنا عليه ، وهو
مستحق للحمد والرضا فى كل ما يفعل ولا حاجة له فى رضانا ،
ولكنها لفظة الحب للمؤمن الصادق فلا حجة إذن للتعلل بالمجتمع
والبيئته والظروف والعائلة والقبيلة فقد أفرد الله كلا منا بعنصر
شريف أصيل يستطيع أن يقف وحده أمام المجتمع والظروف
والبيئته والعائلة ويستطيع أن يصنع قراره منفرداً حراً .
ويؤكد الله تعالى هذه الفردية وبأنها متايط المحاسبة ، وبأننا

وتلك هي البراءة التي أعطها الله للنفس والتوكيد المطلق
بأنها من عنصر شريف لطيف وأن لها حاكمية على كل صنوف
المادة .

وذلك مذهب العارفين وقانونهم .. أن اللطائف تحكم
الكثائف .. ألا تحمل أعمدة مجال الجاذبية هيكل الكون كله ..
وما هي أعمدة المجال .. وما الجاذبية ..؟
ألم يخرج العقل الطاقة الذرية من القمقم وينسف بها الجبال ،
وما العقل إلا هذا النور اللطيف الذي نرى على ضوئه كل
شيء .

ألا يحكم الضمير الجسد .. وما الضمير ؟
ألا تدفع قوة البخار بقاطرة وعشرات العربات الحديدية من
ألوف الأطنان .. وما البخار ؟
ألا تحرك الكهرباء الموتورات وتقوم بتشغيل المصانع
وما الكهرباء . ؟

إنها جميعها لطائف تحكم الكثائف .. والنفس أطفها
جوهرأ .. إنها الواحد الصحيح الذي تخرج منه كل الأعداد
والكسور العشرية واللوغاريتمات ، وكل الحساب والجبر
والهندسة .. وكذلك جاءت البشرية بأعدادها من النفس الأولى
الكلية .

والنفس الكلية هي أول ما خلق الله :

سوف نلتقى بالله أفراداً لا جماعات .

﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ . (٩٥ - مريم)
﴿ ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾ . (٨٠ - مريم)
﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم
ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين
زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم
تزعمون ﴾ . (٩٤ - الأنعام)
﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ . (١١ - المدثر)
إن هذا الموقف الهائل سيقفه كل منا وحده فرداً منفرداً
أمام الله الفرد الصمد مصداقاً للوحدانية المطلقة في المسئولية
والوحدانية المطلقة في الحكم .
﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

(١٦ - غافر)
فرد أمام فرد .. وفردانية كل منا حق بمثل ما أن فردانية الله
حق وكل منا واحد صحيح لا يقبل القسمة .
وهذا توكيد من الله بأن النفس حقيقة مطلقة ، وليست مجرد
وعاء للظروف الموضوعية كما تصور كارل ماركس في فلسفته
المادية ، وبأن لها علواً على الظروف وعلى البيئة المادية ، بعكس
ما زعم فقهاء الماركسية الذين جعلوا للبيئة والظروف وللمجتمع
علواً قهرياً على النفس وسلطة حاكمية عليها .

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ .

(١ - النساء)

إن أول ما خلق الأحد كان الواحد .. ومن الواحد جاءت
جميع الأعداد :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها
رجالا كثيراً ونساء ﴾ .

ولكن تظل حقيقة النفس لغزاً وتظل سرّاً مطلسماً ..
هل كان لنا خلق أول في أحسن تقويم ، وكان لنفوسنا وجود
سابق عند الله :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل
سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير
ممنون ﴾ . (٤ - ٥ - ٦ التين)

إن الله استثنى الصالحين في الأجر فقط ، ولكن كان حكمهم
كحكم الباقي في النشأة .. لقد كانوا في أحسن تقويم ثم ردوا إلى
أسفل سافلين ، فهل ما نحن فيه الآن هو أسفل سافلين ..؟؟
اختلفت التفاسير والعلم عند الله ، ولكن تظل القضية
الثابتة : إن النفس حقيقة الحقائق .. وأنها تنتقل في الأحوال وأن
الجسد يبلى ويموت .

في حين هي لا تموت .. وأنها مناط التشريف ومناط الحساب
ومناط المساءلة .. وأنا لم نخلق سدى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ .
(١١٥ - المؤمنون)

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ .
(٣٦ - القيامة)

إن خلق كل شيء كان بالحق وللحق ، وإن الحياة خلقت
لتستمر بعد الموت في كفيات لا نعلمها ، وإن الرواية لن تنتهي
بالموت بل سوف تتعدد فصولاً إلى ما لا نهاية حيث تكون الغاية
هي اللقاء بالله في الإطلاق .

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ .
(٦ - الانشقاق)

فالكدح سوف يتصل إلى ما لا نهاية عروجاً إلى الله في
المطلق ، وتلك هي الهجرة التي أرادها الله ، لجميع الأنفس
وما أشرفها وما أعظمها من هجرة وما أهون المشقات ،
وما أهون عثرات الطريق إذا كان الموعد الله وهل بعد الله
غاية ..؟! .

تبارك الذي ليس كمثل شيء .

بدونها لا سبيل إلى فهم أى شىء ولا سبيل إلى استمرار أى شىء ، ليس فقط ضرورة عقلية أو ضرورة فلسفية ، بل ضرورة وجودية بحتة .

الإنسان والله والكون قضية واحدة لا يفهم أحدها إلا بالآخر ولا ينفصل طرف منها عن الآخر فالله يفارقنا بعلوه ، ولكنه فينا وأقرب إلينا من حبل الوريد . فأينما تولوا فثم وجه الله . وهو معكم أينما كنتم ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم بل هو الجمال فى كل جميل والقوة فى كل قوى والقدرة فى كل قادر وهو سبحانه نور السموات والأرض . ويؤكد لنا الدين هذا الشعور دون تفلسف فيعطى المؤمن جرعة من الراحة والسكينة والطمأنينة تكفيه مدى عمره فلا يعود يسأل أو يتساءل وإنما ينطلق يسعى ويعمل جاهداً فى سبيل الخير والبر ، غير ناظر إلى مكافأة أو عوض لأن الله ذاته هو العوض ، وليس بعد الله شىء ، ثم هو يسعى دون خوف من مرض أو موت فهو يعلم أنه لا موت وإنما كدح إلى الله وسير فى المنازل وصعود فى معراج من التحولات لا يعلم كيف تكون فذلك غيب ولكن إيمانه يغنيه ويمتد به عبر الغيب وبطول الشهادة كلها .

والعلمانيون الذين يستنكرون علينا المزاوجة بين العلم والدين يأخذون علينا الكلام فى الدين بلغة العلم .. وهم يمشون فى

الدين والعلم

ليس بإنسان من لم يتوقف لحظة فى أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه .. ما الحكاية بالضبط .. من أنا ومن أكون ، ومن أين جنت وإلى أين أذهب ، وما مصيرى وما الحكمة من الألم ، وما الهدف من الوجود ، وعلام هذا اللهاث المجنون وآخر السعى موت وتراب ولا شىء .. إن الحياة دون إيمان ودون يقين بوجود إله عادل هى عبث صرف بلا معنى وبلا سند وبلا رميد .. وهى عذاب بلا حكمة وألم بلا عوض ومغامرة بلا عائد ومشروع بلا ضمان .

والإنسان إذا خلت حياته من الله هو مشروع فاشل نهايته اليأس والانتحار . وإذا كانت الحياة استمرت ثلاثة آلاف مليون سنة فلأن الله فيها ومعها ومن ورائها ومن حولها يهدبها ويدعمها ويساندها وينورها .. ووجوده سبحانه وتعالى ضرورة مطلقة

انشقاق على أنفسهم طول الوقت فهم يقسمون الحقيقة إلى أجزاء
وبتصورون أن كل جزء له علبة خاصة .. فهذه علبة للدين وهذه
علبه للعلم ويتسبون أن تشريح الحقيقة يقتلها لأنها بطبيعتها
بسيطة وشاملة .. فالدين في ذاته علم .. هو علم بالله والعلم بالله
لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته ، فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن
المعرفة بصنعه .. بل إن كل معرفة منها تؤيد الأخرى وتعززها
ولا تناقضها أو تنفيها .. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة
القوانين ووحدة الخامة وانسجام الألوان والأشكال ، هو خير
شاهد على وحدة الصانع .. والكون هو مجال لقدرات الله وأفعاله
وصفاته ..

والتاريخ هو المشيئة الإلهية التي تتحقق شفرها في الحوادث ..
والتطور التكاملي في الكون هو ذلك الكدح إلى الله صعوداً مرتقى
بعد مرتقى .. ونحن نرى الله في كل شيء .. وليس ذنبنا أنهم
لا يرون الله في أي شيء .. وأن نظرتهم تقف عند حدود
الميكروسكوب والتليسكوب وشاشة الرادار .. وأنهم يقسمون كل
شيء إلى ألف جزء وجزء ثم يتيهون في الأجزاء ولا يرون
إلا الأجزاء .

والعلم تراث للجميع ولا يستطيع أحد أن يدعى ملكية العلم
لنفسه ، ولا يوجد علم روسي ولا علم أمريكي ولا علم
إنجليزي وحقات العلوم ملكية مشتركة وهي موضوع استبصار

العالم والفيلسوف والمفكر ورجل الدين ، دون أن يتهم أحدهم
بالتبعية لأحد .. فالتماس الحق من جميع سبله المتاحة هو أوجب
واجبات العقل .

وعيب العلمانيين أنهم يخلقون تناقضاً بين العلم والدين ثم
يعودون فيخلقون تناقضاً بين العقل والوجدان ويعيشون في
انشقاق دائم في أنفسهم وعلى أنفسهم وذلك لبعدهم عن الرؤية
الشمولية ولغرقهم في الجزئيات ولو أن رؤيتهم ارتفعت عن الجزء
والتحمت بالكل لذابت كل هذه التناقضات ولرأوا الانسجام
الشامل في كل شيء ولكانوا من الذين فهموا الآية .

فأينما تولوا فثم وجه الله .. إن الله واسع عليم .
فما كل هذا التلوين والتصنيف في الأشكال في هذا المتحف
الكوفي إلا تعبير عن السعة الإلهية والعلم الإلهي الذي أحاط
بكل شيء فهم أينما تولوا فإنهم يقرءون كتاب الله ويستجلون
آياته .. فليس ثمة إلا هو .. وما من الله بد .
يقول الله للعبد الصالح في كتاب المواقف والمخاطبات
للنفرى : «أنا في عين كل ناظر» ومعنى ذلك أنه في المشهد وفي
الشاهد وذلك هو الوجود مطلقاً فسبحان ربي الذي وسع كل
شيء رحمة وعلماً . لو قرأت القرآن فأنت في كلماته .. ولو قرأت
كتاب الكون فأنت في صنعه .. ولو قرأت في العلوم الطبيعية
فأنت في قوانينه .. ولو قرأت التاريخ فأنت في مشيئته .. ولو

قرأت في الفنون فأنت في تجليات اسمه « البديع والمخالق والمصور » ولا مهرب لك منه .. أنى توجهت فأنت في إحاطته .. وأجدادنا في صدر الإسلام فهموا الإسلام أحسن منا فكان الواحد منهم أمة ودائرة معارف كان ابن سينا عالماً وطبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وحجة في الرياضيات ومثله الرازي وابن رشد وابن الهيثم وغيرهم .. لم يكن الواحد منهم يضع الدين في علبه ويضع العلم في علبه ويقول لا أدخل هذا في ذاك ولا أدخل ذاك في هذا وإنما كان كل منهم عقلاً شمولياً ورؤية شمولية .. وكان كلما ازداد شمولاً في النظر ازداد قرباً وفهماً للدين والعلم علي السواء ، حتى المفسر السلفي الذي يحتج به الخصوم لم يكن مغلقاً على المعلومة الدينية القرآنية بل كان يحاول أن يستخدم العلوم المتاحة في عصره لفهم آيات القرآن الكريم .

حينما فسر السلف « وأرسلنا الرياح لواقح » بقولهم إنها الرياح تدفع السحب فتسقطها على الأرض مطراً ، فتلقحها وتخصبها كانوا يستعينون بالعلوم الطبيعية في زمانهم ونحن اليوم حينما اتسعت معارفنا نقول هي الرياح تحمل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة فتلقحها ، ثم حينما اتسعت معارفنا أكثر نقول هي الرياح تحمل ذرات التراب وتلقى بها في السحب فتعمل كبذور تتجمع حولها القطيرات فهي كأنما تلقحها ، وهكذا كلما تقدم ركب العلم كشف لنا المزيد من مغاليق هذه الآية الكريمة .

إننا نسير على نفس الدرب خلفاً عن أف لم نأت بدعا من الأمر ، بل إن السلف كانوا أحياناً يغفلون في هذا التفسير العلمي ، فيقعون في الخطأ ، فنرى الطبري على ارتفاع قدمه في التفسير يفسر الآية : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » بأنها الدجاجة تخرج من البيضة والبيضة تخرج من الدجاجة ، وأنها الجنين يخرج من النطفة المنوية ، والنطفة المنوية تعود وتخرج من الرجل البالغ .. ونعرف الآن إن المثال العلمي الذي ضربه الطبري مثال خاطئ .. فالبيضة والدجاجة هي حى يخرج من حى وكذلك النطفة هي حيوان منوى حى يخرج من حى .. ولكن الطبري كان له عذره فهكذا كانت العلوم المتاحة في زمانه .. ولقد اخطأ أرسطو خطأ أكبر حينما قال بتولد الديدان من الجبن القديم وخروج الحياة من تخمر المواد الميتة .. واليوم يعرف أصغر تلميذ في أى مدرسة ابتدائية أن دود المش يخرج من بيضة ذبابة المش ، وأن التخمر يحدث بسبب ميكروب الخميرة ، وليس العكس .. هي أخطاء وقع فيها أكابر .. ولكنهم اجتهدوا فكان لهم أجر حتى على أخطائهم .

ولكن الخطأ الذى لا يغتفر أن يتوقف الاجتهاد وأن يجبن العلماء خوفاً من أن يقال إنهم أدخلوا البدع .. وأن يتقاذف الناس الاتهام بالتكفير .. وأن ينغلق رجل العلم على علبه العلم ، وأن ينغلق رجل الدين داخل قوقعة الدين ، وأن ينعدم

التواصل ، وأن ينحل التفكير إلى جزر منفصلة غير مترابطة ،
وأن نفتقد الرؤية الشاملة ، وأن يختنق كل واحد في تخصصه فذلك
داية الانحدار والأفول والتخلف الحضارى .

الملك والملكوت .. وأنا

رصف الله نفسه بأنه الملك ، وبأن له ملكاً وملكوتاً وجنداً
مجندة وملاً أعلى ، وأنه قد وكل إلى كل فرد من هذا الملاً الأعلى
مهمة يقوم بها فجبريل الروح الأمين هو رسول الوحي ، وهو
الواسطة بين الله وجميع أنبيائه ، وميكائيل مكلف بالأرزاق ،
وإسرافيل نافع الصور يوم تقوم الساعة وعزرائيل قابض
الأرواح :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ .
(السجدة - ١١)

ذلك ملك الموت .. وهم أكثر من ملك :
﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ . (الأنعام - ٦١)

ثم هناك الملائكة الحفظة :
﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ . (الطارق - ٤)

والملائكة الكاتبون :

﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾

(الانفطار ١٠ - ١١ - ١٢) .

والملائكة الصافون والملائكة المسبحون والملائكة الحافون بالعرش والملائكة العالون وملائكة التصريف .

ملك عظيم من فوق سبع سموات لا يتناهى .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن .. لم لا يباشر الله جميع هذه الشئون بذاته مادامت بيده مقاليد كل شىء وإليه يرجع الأمر كله ؟ فلماذا لا يفعل بذاته وبدون وسائط ؟

وما الحاجة إلى كل هذا المألأ ؟ والجواب .. أنها سنة الله فى خلقه .. فهو يجرى الشفاء على يد جراح ، وكان فى قدرته أن يشفى بذاته وهو يجرى الأرزاق من باب تجارة أو من باب صناعة ، وكان فى قدرته أن يوصل المال إلى أصحابه مباشرة دون أسباب .. وهو يوصل إلينا العلم بوسائط الكليات والجامعات والمدارس بل هو يوصل العلم إلى أنبيائه عن طريق جبريل .. وكان بالإمكان أن يلقيه فى روعنا مباشرة .

حتى المعجزة الخارقة فإنه يجريها بواسطة فيقول عن الحمل الخارق لمريم :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾

ويقول جبريل لمريم :

﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾

وهو أمر كان يمكن لله أن يفعله مباشرة .

تلك إذن سنته فى الدنيا .

وتلك أيضاً سنته فى الآخرة حيث يقيم على النار زبانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وحيث يقيم على

أبواب الجنة ملائكة الرضوان .

حتى عرشه العظيم سبحانه يقول لنا القرآن إنه محمول يحمله

ثمانية

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

وهم يحملونه ولاشك بقوة الله ذاته فما ضرورتهم ..

والجواب لاضرورة سوى كرمه هو .. حيث شاء بكرمه أن يعطى صفاته الشافية للطبيب ، ويتجلى بأحكام اسمه العليم على المعلم ، ويتجلى باسمه الرزاق على التاجر ، وباسمه البديع على الفنان ، ويتكرم بقوته على حاملى عرشه ، فتلك كلها شواهد كرم منه لا شواهد حاجة إلينا .

ثم إن الوسائط أيضاً هى سنته .. فهو إذاً أراد أن يعالج الجبل سلط عليه وسائط مادية مثله لتشكيله سلط عليه الرياح والأمطار والسيول تنحته وتشكله ، أو سلط عليه كائناً مادياً مثل الإنسان ينحت فيه الكهوف والسدود .. ولو أنه سبحانه تجلى على الجبل مباشرة لجعله دكاً .

وحيثما ظهر جبريل على صورته الحقيقية لمحمد عليه الصلاة والسلام خر مغشياً عليه .

إن تفاوت المقامات بين الله وملائكته وبين ملائكته وخلقه من البشر وبين البشر وسائر صنوف المادة الجامدة استدعى وجود البرازخ والوسائط .. فلا يطبق الأسفل أن يتجلى عليه الأعلى مباشرة .

إننا نقذف نواة الذرة وهي شيء غير منظور بشيء آخر غير منظور وهي قذائف النيوترون فنتخذ وسائط من جنس ما نتعامل معه .. فنحاول الوصول إلى الشيء الخفي باتخاذ برزخ خفي . وجبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو أيضاً البرزخ بين الله وبين جميع أنبيائه .. لأنه لا أحد من الأنبياء يطبق الحضرة الإلهية الذاتية مباشرة .. فإن تجلى هذه الحضرة يؤدي إلى سحقٍ ومحق كل شيء .. تماماً كما رأينا من حال الجبل الذي أصبح دكا ، وموسى الذي خر صعقاً .

إننا بحكم طبيعتنا البشرية لا نحتمل أنوار الذات الإلهية فاستدعى التواصل بين الطبيعتين إلى اتخاذ البرازخ . وكما أن جبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد ، فكذلك محمد عليه الصلاة والسلام هو برزخنا الأعظم ، وهو وسيلتنا وواسطتنا وبابنا إلى الفهم عن الله .. لأننا بحكم طبيعتنا المحدودة لا نستطيع أن نصل إلى حضرة الإطلاق دون دليل .

إن الضرورة هنا كانت قيماً علينا نحن ، فنحن الضعفاء والله

هو القوى ونحن الفقراء إليه وهو سبحانه الغني عنا . وكان تنزل الله بين البرازخ ليتواصل معنا كرمًا منه ولطفًا وإيناسًا .. لا حاجة منه إلينا فالله ليس فعالاً بنا ، بل نحن الذين نفعل به ونحن الذين نرى به ونسمع به ونفهم به ونمشى به ونحيا به .. بل إنه هو هو الظاهر بوجهه في كل شيء :

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

فهو الملك ، وهو هو جميع القوى الفعالة في المملكة وهو هو جميع ما في هذه المملكة من حق وخير وجمال وعدل وكرم وحلم ورأفة ومودة ورحمة وسمع وبصر وعلم فتلك جميعاً أسماؤه تجلت بأحكامها على ما في المملكة من خلائق .

فإذا سحب منا ربنا قيوميته عدنا عدما واختفى مسرح الوجود كله ولم يبق إلا نوره ، فهو الحضور المستمر أبداً وأزلاً وهو الظاهر ونحن الغيب .. وهو الوجود ونحن العدم .. وهو الحجة على نفسه وهو برهان وجوده ودليل ذاته .

من مبدأ القصة حينما كان الله ولا شيء معه إلى الآن حيث مازال على ما عليه كان .. لم يجد جديد .. فكل ما حدث كان تحصيل حاصل لما في علمه .. وما زال هو على ما عليه كان فالقول بحاجة الله إلى جنوده ومملكته يعكس القضية ويقلبها .. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. فلا شيء فعال في ملكه وملكوته

سواء إنما هي ثياب ألبسها لنا ومواهب أعطاها لنا وأرزاق وزعها علينا ، بل إن لبسة الوجود ذاتها منه .. وليس لنا من ذواتنا إلا العدم .

بل اللغز الذي يحيرني .. هو ذاتي نفسها أنا .. من أكون .
أما أحقية الله في كل شيء فهي أظهر من أن تكون محل شك أو مساءلة .. وبالمثل وجوده وهيمنته وظهوره .
إنما أنا .. ذرة العدم .. التي هي نفسي ما أمرها .. وما خطبها وكيف تشخصت من الأزل .. وكيف جاء بها الله ومعها سرها وما تكتم ، ثم أوجدها ليخرج مكتومها وابتلاها بالشر والخير لتفصح عن سرها وتفشى مكنونها .
أنا ...؟

وهل لي هذه الأنا .. أم أفي استعرتها مع ما استعرت من الله .. فهي ثوب ضمن ما ألبسني الله من ثياب .
ذلك هو السر الذي يحيرني برغم أنه لا شيء أقرب إليّ منها .. وهل هناك ما هو أقرب إليّ من نفسي التي بين جنبي .. ومع ذلك فهي الطلسم .. والتهيه .. والمحال .
ثم إن اللغز يصل إلى ذروة استساراه حينما نرى الله يأمر لئلا نكته بالسجود لهذه النفس التي تشخصت من عدم ويسخر لها ملكه وملكوته ويخضع لها الكون جميعه :

﴿ سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ .

يقول الله للعبد الكامل في كتاب المواقف والمخاطبات للنفري : أنت مني .. أنت تليني .. وكل شيء في الوجود يأتي بعدك .. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .. فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار ، أقوى من الحروف والأسماء أقوى من كل ما بدأ في دنيا وآخرة .
إذا تحققت بسرك تحققت بي .. أنا الذي منه كل شيء أنا الذي أبديت كل شيء .. أنا الذي هو أنا .
إلى هذه الذروة المذهلة من التشریف تصل هذه النقطة العدمية التي هي النفس الإنسانية . فيقول عنها رب العالمين :

أنت مني
أنت تليني وكل شيء في الوجود يأتي بعدك لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .
فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء .. أقوى من كل ما بدأ في دنيا وآخرة ..

ويقول للعبد الكامل :
إذا تحققت بسرك تحققت بي .. أنا الذي منه كل شيء .
كيف يارب يتحقق الواحد منا يسره .

إلهى كم تكذب المظاهر وكم تخفى جلودنا حقائق هائلة
نحتها .

وكم تتشابه وجوهنا وتختلف منازلنا .. وكم يمشى فى الأسعال
والخرق من هم فوق الثريا منزلة .
لهفى على ذلك اليوم الذى تهتك فيه الأستار ويعرف كل منا
من يكون .

وترفع الحجب ويكشف الغطاء ويغدو البصر حديداً ويفاجأ
كل منا من نفسه بما لا يعلم ..
ويعرف كل منا من يكون ..
يا له من يوم ..
يا له من يوم ..

إذا عرف مقامه ولزم مقامه .
ليس فقط أن يبلغ مقام الكمال ، بل أيضاً يلزم هذا المقام فلا
يجيد عنه .. وذلك هو غاية التمكين والتثبيت .
وذلك هو المعراج العظيم الذى لا يقدر عليه إلا آحاد ، بل
إن الملك والملكوت ذاتها مجرد معارج لهذه النفس الكاملة والدنيا
والآخرة منازلها وهى تسير إلى ربها وقد أقدرها الله على الدنيا ..
وعلى تجاوزها كما أقدرها على الآخرة وعلى تجاوزها فى مراقى
السير إليه تلك هى النفس الطلسم المثلسم .
وتلك هى إمكاناتها حيث اجتمع فيها أقصى العدم وأقصى
الوجود .

وحيث هى منى أقرب إلى من كل شىء ، وأخفى على من كل
شىء .

وحيث يبلغ إبهامها بى إلى البهت والحيرة والذهول :
من أنا ..
ومن أكون ..

أنا الذى أسجد لى الله الملك والملكوت ، وسخر لى الكون
أجمع .

أنا الذى أمرض وأشيخ وأموت ، ويفتك بى ميكروب لا يرى
لفرط تفاهته .

أنا الذى جئت من قطرة ماء وأنتهى إلى جيفة .

جنس منها إلى جنس آخر .
وما يحدث في حالة التهجين والتقليم والتطعيم بالجينات من
فرد إلى فرد هو خروج نوعيات جديدة بالمرّة .
والكلام على أن السلالة البشرية جاءت من حلقة مفقودة
تشعبت منها الحياة إلى فرعين : فرع خرجت منه سلالة قرديّة
وفرع آخر مختلف خرجت منه سلالة بشرية .. هذا الكلام هو
نظرية ظنيّة يمكن أن نرفضها دون حاجة إلى رفض التطور من
أساسه .

وعلمياً لا يمكن لأحد أن يرفض التطور من أساسه .. لأن
الحقيقة الجوهرية في التطور . وهي خروج السلالات من بعضها
البعض وتنوعها بتكرار التزاوج وتكرار التوليف بين الأمشاج
أو الجينات (المورثات) .. ثم ظهور طفرات جديدة في
السلالات بين وقت وآخر .. هذا الكلام هو كلام علمي ثابت
بالتجربة وهو كلام موضوعي ومؤكّد .. وليس كلاماً ظنياً يقبل
الطعن .

ثم إن تسلسل المخلوقات الحية في الزمان الجيولوجي بشهادة
الحفريات تؤكّد ظهور الإنسان في آخر السلسلة التي بدأت من
ثلاثة آلاف مليون سنة صعوداً من كائنات بسيطة وحيدة الخلية
إلى عديدة الخلايا .. رخوية ثم قشرية ثم فقريّة .. ترتقى هوناً مع
الزمان درجة بعد درجة وتنوعاً بعد تنوع من بكتيريا إلى طحالب

عن التطور

الكثير من رجال الدين لا يحتمل كلمة « تطور » ويرفض
موضوع التطور برمته ، ظناً منه أن التسليم بالتطور يستتبع
الاعتراف بأن الإنسان جاء من سلالة القردة وهو فهم خاطئ .
ودارون نفسه لم يقل بأن الإنسان جاء من سلالة أي قرد من
القردة التي نعرفها .. بل هو يجزم بأن جميع هذه القردة لن يتطور
أحدها إلى إنسان ولو امتد الزمان إلى ملايين السنين أو إلى
أحقاب وآباد .

وعلوم الوراثة والجينات هي الأخرى تنفي خروج الإنسان
من قرد ، فالخريطة الكروموسومية للقردة مختلفة عن الخريطة
الكروموسومية للإنسان بشكل ينفي خروج أحدهما من الآخر .
بل إن علوم التطور نفسها تقول إن كل جنس من الأجناس
الموجودة هو نهاية عمياء وحارة سد بحيث لا يمكن أن يؤدي

إلى فطر إلى سرخسيات إلى زهريات في المملكة النباتية ، ومن البروتوزوا إلى الإسفنج إلى الديدان إلى القشريات إلى العناكب إلى الحشرات إلى الأسماك إلى الضفادع إلى السلاحف إلى الطيور إلى الثدييات بأنواعها وأعلاها الشمبانزى .
وعمر الإنسان في أرشيف الصخور الثابت هو حوالى المليون سنة زيادة أو نقصاً .

في حين أن عمر أية حشرة يزيد على خمسمائة مليون سنة .. وعمر الطحالب ثلاثة آلاف مليون سنة ، وأول خلية طحلبية لها حفرة ثابتة مرسومة على الصخور منذ ثلاثة آلاف مليون سنة ... وعالم التطور قد يكذب وقد يضل السبيل بحسن نية .. ولكن الصخور لا تكذب .. والجبال لا تضل السبيل لأنها تعمل بأمر الله وقوانينه دون تصرف .

ثم إن التكيف والتأقلم بين كل جنس حيوانى وبيئته ، وبين كل جنس نباتى وبيئته وتطور نفس عظام الأطراف لتصبح هى ذاتها أجنحة فى الطيور ، وزعانف فى الأسماك ، وسيقان فى الدواب ، ومجاديف غشائية فى الضفادع .. هى الأخرى حقيقة تشريحية .

ثم إن خروج الشرايين من القلب بخطه واحدة وعودتها بخريطة وريدية واحدة إلى الرئتين فى الأرنب والكلب والذئب

والفأر والفيل والحوت والحمامة والسلحفاة والقرد والإنسان ليست مصادفة .

ثم إن تخلف بقايا من الأعضاء المنقرضة بلا وظيفة فى كل مجموعة حيوانية فى أثناء ترقبها من عتبة إلى عتبة .. هى بصمات تشير إلى الماضى .

إن الكم العلمى الهائل من الشواهد لا يمكن كتمه بمجرد إشاحة باليد وبمجرد الرفض الساذج للموضوع كله .

وقد انقسم العلماء أمام هذه الشواهد المحيرة إلى مؤيد بدرجات للتطور ، وإلى رافض بدرجات ولكن الرفض الكامل بات مستحيلًا لأنه ببساطة موقف غير علمى .

وخلق الإنسان بنشأة مستقلة غير مسبوقه بأجداد أو أسلاف حيوانيين لا تعنى أن كل فرد فى مجموعة الحيوانات والنباتات جاء بنشأة مستقلة .

إن النباتات الزهرية وحدها أمكن إحصاء خمسمائة ألف مصنف منها .. فهل معنى هذا أنه يلزم لكل صنف منها نشأة مستقلة .

وما الذى يدعونا إلى هذا التفكير المعقد إذا كانت هى بالفعل تندرج فى عائلات ، والكثير منها يقبل التهجين بين بعضها البعض .

إن المنطق البسيط سيقول بأنها تنوعات سلالية جاءت

بالتزاوج المستمر بين تواليف متعددة من الأمشاج والجينات انضافت لها عديد الصفات التي استجبت بالتكيف مع بيئات متغيرة ، وأنتجت هذا المتحف الباهر من النباتات .

وما يقال عن النبات يقال عن الحيوان .

وقد تصح النشأتان معاً .. النشأة المستقلة للبعض والنشأة التطورية السلالية التي يستتبط فيها البعض من البعض الآخر .. فتصح النظريتان دون مصادرة .

ثم إن التطوير والتحسين ليس فيه إنكار للخالق .

فإن تطوير كل شيء وتحسين كل شيء مرده إلى الله .. وقد قال بذلك دارون نفسه في رده على الكنيسة .

والتحسين لا ينفى العناية الإلهية .. بل يؤكدها !

والترقى في الزمان هو قانون الله وسنته لكي يكون للزمان حكمة ، ولكي يكون لجهاد الكائنات وجلادها مع الظروف ثمرة وغاية ومعنى ، فلم يحدث ما حدث لنقص أو عجز في خطة الخالق تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. وإنما هو أمر مراد للحكمة .

وإذا كانت الكنيسة قد وقفت هذا الموقف من العلم لجمودها ولسيطرة الكهنوت في فترة من الزمان على السياسة والفكر ..

فإننا نقول .. ليس عندنا كهنوت ولا حجر من علماء الدين على العلم .. بل إن ديننا نفسه علم وهو يأمرنا بالعلم .. ويأمرنا بالنظر .. بل إنه يأمرنا بالنظر في هذا الموضوع بالذات .. موضوع

كيفية بدأ الخلق :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

(العنكبوت - ٢٠)

ويعلم الله أننا سوف نختلف في هذا الموضوع وسوف نضل

ونخطئ ونصيب وسوف يطول بنا المشوار ، ربما إلى قيام الساعة ..

ومع ذلك أمرنا .. فأمره واجب .. واختلافنا لا غبار عليه ..

ولا يجوز أن يكفر أحدنا الآخر .. وإنما علينا أن نتعاون .. في

مودة .. ودونما تعصب لرأى .. فالقرآن نفسه حمال أوجه .. وآيات

الخلق في الكتاب من متشابه القرآن وليست من محكم القرآن لأنها

تحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير .. بل إن كلمة الأطوار

جاءت بنصها في إحدى الآيات :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً ﴾

(١٣ - ١٤ : نوح)

وفي آية أخرى :

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾

(نوح - ١٧)

وفي آية تكلم القرآن عن خلق الإنسان من طين ، وفي آية ثانية

من سلالة من طين :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾

(المؤمنون - ١٢)

وفي آية تكلم القرآن عن حين من الدهر لم يكن للإنسان شأن يذكر :

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ . (الإنسان - ١)

والكلمة النهائية في مراد هذه الآيات لا يستطيع أحد أن يدعيها فلا يعلم مراد الله إلا الله .. وإنما الكل يجتهد ويصيب ويخطئ .. فالباب مفتوح لكل صاحب علم .

كما أن الكلمة النهائية في مشكلة أصل الإنسان من الناحية البيولوجية العلمية لا يستطيع أحد أن يدعيها فمزال الأمر رهن البحث والباب مفتوح للاجتهد .

فلا داعي لافتنال معارك والتعصب لأي جانب دون الآخر بلا حجة أو برهان .

ثم إن القرآن لم يتكلم عن خلق الإنسان باعتباره عملاً لحظياً فورياً ، وإنما يروى لنا أنه تم على مراحل :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعدوا له ساجدين ﴾

(ص - ٧١ - ٧٢)

يقول ربنا جل وعلا : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي .. فكيف كانت التسوية .. وكيف كان النفخ في الروح ! . تلك مراحل .

وفي آية أخرى يؤكد هذه المراحل :
﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ (الأعراف - ١١)

خلقناكم ثم صورناكم .. تلك مراحل .. و « ثم » .. تقتضى زمناً إلهياً .. (واليوم عند الله بألف سنة مما تعدون ، وفي آية قرآنية أخرى بخمسين ألف سنة) . فهو إذن زمن مديد ، وأحقاب .

ثم إن الخلق والتصوير يأتي في الآية سابقاً على آدم وعلى أمر الإسجد له .. فأين كان .. إنه .. لا يمكن أن يكون تصويراً جنينياً في الأرحام .. لأنه مذكور قبل آدم وقبل الذرية .. وقبل إسجد الملائكة .. وآدم مازال وحيداً ولا ذكر لحواء بعد لنقول إنه تصوير جنيني في أرحام .

والآية بنصها من آيات الأسرار التي لا تفهم دون تأويل .. وبالمثل كلمة « تسوية » :

﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء . (الانفطار ٧ - ٨)

ركبك ﴾ لماذا يقول ربنا : « فعدلك » .. أكان به اعوجاج فنقله الله سبحانه وتعالى بالتسوية إلى حال الاعتدال .

إن فيها المعنى الواضح للترقية والتحسين على أحسن تقويم .

ثم كيف تفهم التسوية ؟

إنها تحتمل التسوية المباشرة للطينة ، وتحتمل التسوية السلالية باستنباطها وتقريرها على مراحل حتى تبلغ غايتها وكمال اعتدالها .

إن الآيات تحمل وجوهاً كثيرة للفهم .

ولا نصادر رأى أحد .. ولا نجزم بشيء .. وقد نكون على خطأ في فهمنا .

وإنما فقط ندعو إلى فتح الباب والاجتهاد وعدم التعصب وعدم رفض الثابت المؤكد من العلم .

وهم يقولون إن الله لا يمكن أن يخلق شيئاً ناقصاً .. ونسألهم نحن : فما بال الأجنة تولد مشوهة . وما بال المولودون عمياناً .. والمولودون يتأخلف عقلياً .. والمولودون بساق واحد أو شفة مشقوقة .. أو خرساً أو صماً . أليسوا من خلق الله ؟!

وما بالكم بالزاحفات الضخمة التي نعرفها باسم الدنياصورات وكان كل واحد منها بحجم العمارة يأتي عليها العصر الجليدي فلا تستطيع أن تتكيف وتموت وتنقرض .. في حين تتكيف الحشرات وصغار الحيوانات ، وتغير المحنة وتستمر ! أكان نقص هذه الكائنات وقصورها فشلاً في الخطة الإلهية .. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. بل نصح هؤلاء ما فهموا

ونقول إن كل ما نرى حولنا من نقص ليس فشلاً في الخطة الإلهية بل إنه ضمن الخطة الإلهية .. وهو مراد ومقصود لحكمة .. فكل ما حدث هو من باب :

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾
(يوسف - ١١١)

ومن باب :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾
(يوسف - ١٠٩)

وأحياناً ندرك الحكمة وأحياناً لا ندركها .. ولكن تظل صفحة الكون كله بما يجري فيها كتاباً حافلاً بالسير والعبر .. كتاباً يجريه الله أمامنا ليرينا ويعلمنا ويشرح لنا آيات إعجازه وحكمته .. وليقول لنا في النهاية .. إن الأرض لله يورثها من يشاء ، وإن مقاليد الأحياء والإماتة بيده .. سبحانه لا يسأل عما يفعل .

ولكننا مكلفون مأمورون بالتفكير والتأمل والتدبر وإعمال النظر .. مأمورون بذلك وإن اختلفنا .. مأمورون وإن أخطأنا .
﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾
(العنكبوت - ٢٠)

وما كتبت هذا الكلام إلا عملاً بهذا التكليف ، فإن كنت أصبت فمن الله .. وإن كنت أخطأت فمن نفسي .
ونسأل الله الهداية .

وإسرائيل السائر إلى الله .. وهكذا .. بل إن في اللغة الفرنسية
الضمير « هو » ينطق أيضاً « إيل » ، ومعلوم أن الضمير
« هو » من أسماء الله وفي التوراة ياهوه - أى ياهو .
أما « الرحمن » فقد جاء في نصوص تدمر قبل الإسلام
« رحمانا » وفي اللغة الإيرانية رحن معناها السلام وفي اللغة
الحيشية رمان ورامون إله الصواعق وفي اللغة الآشورية رحمان هو
الإله البابلي وله معبد في مدينة آشور وفي اللغة السنسكريتية
الهندية « رهيم » تسيبحة يرددونها الصوفي على مسبحة - وهي
تقابل عندنا رحيم .

والفرق بين الرحمن والرحيم أن الرحمن يرحم ويؤدب
بالعذاب .. يقول إبراهيم لأبيه :
﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون
للشيطان وليا ﴾ (مريم - ٤٥)
أما الرحيم فهو الاسم المعبر عن الرحمة الخالصة .
والله يجمع بين الاسمين والصفتين فهو رحمن الدنيا ورحيم
الآخرة .

أما طه فقد ورد عن السامريين أنهم كانوا ينتظرون نبياً اسمه
طاهاب وعند الهنود الحمر طاهايو هي الشمس ومعناها عندهم
« أبونا » .
أما يس .. فهي تعنى باللغة الحبشية .. يا إنسان .

بحث في ألفاظ القرآن الكريم

صاحب هذا البحث هو الدكتور بهاء الدين وزدى وهو فنان
رسام بالإضافة إلى كونه طبيباً وكانت له معارض كثيرة في
المغرب وباريس ومدريد ، وهو أيضاً دارس متعمق للهيروغليفية
المصرية واللغة السومرية والحضارات السامية القديمة .. وهذه
العملية الموسوعية الشمولية حاول أن يبحث في الألفاظ
السامية ..

يقف مثلاً عند أسماء الله .. فيقول إن من أسمائه القديمة ..
« إيل » ، وإيل في اللغة الآشورية البابلية تعنى حكومة .. وعرف
عرب هذا الاسم قبل الإسلام ، وجاء هذا الاسم في القرآن
في أسماء الأنبياء والملائكة مثل .. إسماعيل وإسرائيل
وإبراهيم وإسماعيل وعزرائيل وإسرافيل .. كل اسم منها مضاف
إلى « إيل » وإسماعيل « بهذه الصفة » معناه السميع بالله ..

أما فرعون ذو الأوتاد الذي جاء ذكره في القرآن ، فقد
فسرها الأقدمون بأن معنى فرعون ذو الجنود .. وأن الأوتاد هي
الجموع والجيوش الحربية .. ويقول المؤلف صاحب البحث : إن
الآثار حفظت لنا أسماء كثيرة على الجدران لفراعنة يعذبون
الأسرى بالأوتاد .. ومن آخرون : إن الأوتاد هي الأهرام ..
وربما كان أقرب التفسير إلى الحقيقة أن فرعون ذا الأوتاد .. هو
فرعون ذو المسلات والمسلات هي أقرب ما تكون إلى
الأوتاد .. ولقد كان تسميته الثاني فرعون موسى أربع عشرة
مسلة .. ولعله فرعون ذو الأوتاد بعينه .

أما هامان فهي تطلق لاسم الإله آمون أو هامون أو هامان .
وقد ورد اسم هامان ابن عم الفرعون خوفو وكان هامان
وزيره وهو الذي كلفه خوفو ببناء الهرم الأكبر وقد عاش إلى
حوالي العام ٢٥٨٠ قبل الميلاد .

وهناك هامان بن حافي الذي كان في زمن أخناتون وكان هو
الآخر مهندساً معمارياً وطبيباً وفيلسوفاً .. ومن أقواله
لأخناتون .. إذا كنت تريد أن تكون ملكاً .. إذا كنت تريد أن
تحكم مصر ، فكن بناء واجعل فكرك يتحقق في المعمار وخيالك
ينطق في الحجر ، وكان تسميته الثاني فرعون موسى له أولاد
عشرة يحملون اسم هامان .. وبعد وفاته اعتلى العرش من بعده
متفتحاً ثم خلف متفتحاً على العرش هامان موسى .. وربما كانت

مسي هي تحريف موسى .. ولعل هذا الهامان الأخير الذي كان
وزيراً لمنفتح ثم خلفه على الحكم هو هامان المذكور في القرآن ..
ويكون موسى قد هرب من مصر في حكم رمسيس الثاني ثم عاد
في حكم منفتح ويكون منفتح هو الذي توجه بالأمر إلى وزيره :
﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ﴾
(٣٦ - غافر)

وبمثل ما كان هامان مشتقاً من آمون .. فإن العزيز (عزيز
مصر) هو الآخر مشتق من الإله إيزيس .
أما نون فيقول الزبيدي في تاج العروس إن معناها دواة .
ونون في الهيروغليزية معناها محيط الماء الأول الذي فيه كل
عناصر الخلق .. وأول ما عبد المصريون من آلهة كان الإله نون
وزوجته نونة ، ونون في العقيدة المصرية هو الحوض الدائم
للقوى الحيوية ، ونون بحر العلم والحكمة .

أما قوم عماد الدين ورد ذكرهم في القرآن ، فيقول عنهم
المؤلف : إن عاداً باللغة الآشورية معناها البشر العقارب ، وهم
أقوام أشداء ذوو بأس سكنوا جنوب الجزيرة العربية ثم انتشروا
بالغزو شمالاً وفتحوا الشام والعراق ووصلوا إلى الهند وأطراف
مصر .

ويقول المؤلف : إنه مما يلفت النظر وجود آلهة هندية اسمها
عاديات وعادي بودا وعادويتا وعادينات وأنه قرب كلكتا قبيلة

موجتين .. الموجة الأولى قبل الهكسوس والموجة الثانية مع
 الهكسوس ، ويستدل المؤلف على كلام ابن خرون بأسماء مصرية
 مثل عادير ماشيد وهي قبيلة تسكن في الدلتا على شفا الصحراء
 ومدينة عادحو التي جاء ذكرها في البرديات .
 تلك بعض وقفات مع الرحلة المثيرة التي قام بها ذلك
 الباحث .. الدكتور بهاء الدين وردى .. مع ألفاظ القرآن
 الكريم ..
 وهي إضافة جادة وعميقة إلى المكتبة القرآنية وملاحظة
 استطلاعية في بحر اللغات القديمة تكشف رجاها جديدا من وجوه
 الإعجاز القرآني هو الإعجاز التاريخي .

اسمها عادى وآسى تسكن التلال .
 ويرى المؤلف أن إرم ذات العماد ليست اسما لمدينة ، بل هي
 اسم لقبيلة من قوم عاد يعود أصلها لبطون آرامية .. وأن عادا
 نفسها سلالة آرامية .. وجلعاد المذكورة في التوراة هي قلاع عاد
 جلعاد .

والاصفهانى في كتابه « تاريخ سنى الملوك » يقول : إن العرب
 العاربة عشرة : عاد وثمرود وطسم وجديس وعماليق وعبيل وأميم
 ورهط وجاسم وقحطان . والنبط من البطون الآرامية المتأخرة
 وهم من بقايا عاد ومثلهم قبائل جرهم وأخير ابن قظامى وابن
 الكلبي أن عادا كانت تتكلم العربية .
 وقال أبو عمر أن لسان عاد وثمرود وشعيب ومدين عربى
 كله .

وروى عن على بن أبى طالب قوله : إن جرهما من بقايا عاد
 وثقيفا من بقايا ثمود .

أما آلهة عاد فكانت العقرب والنسر والعجل والصقر وقد
 سمو أنفسهم البشر العقارب ويلفت المؤلف النظر إلى أسماء
 أماكن في لبنان مثل جب عادين أو بئر عاد ومدينة عدلون قرب
 صور ونهر عادونيس .

ويقول ابن خلدون أن قوم عاد وصلوا مصر واحتلوا الدلتا
 وبنوا مدينة أون المذكورة في التوراة .. وأنهم جاءوا مصر على

ثم مواسير البول التي تجمع البول من الكليتين لتصب في
 الحوض ثم الحالب ثم المثانة ثم قناة الصرف النهائية .
 ثم مواسير الطعام من الفم إلى البلعوم إلى المعدة إلى الاثنا
 عشر إلى الأمعاء الدقيقة .
 ثم مواسير الفضلات من المصران الصاعد إلى المستعرض إلى
 الهابط إلى المستقيم إلى الشرج .
 ثم ممرات الولادة وغرفها ودهاليزها وأنايبها .
 ثم مجارى المرارة وحوصلتها ومواسيرها .
 ثم مجارى الليمف .. ومواقف الليمف ومحطاته في الغدد
 الليمفية .
 وهى مواسير تمر إلى جوارها الفضلات وتحميها شبكة من
 الأوعية الدموية والأعصاب ، وجيوش من خلايا المقاومة تلتهم
 أى ميكروب يمكن أن يتسرب من هذه المواسير في طريق خاطئ
 إلى الجسم .
 وأنايب العرق .. وبلايين منها تشق الجلد وتفتح على سطحه
 لترطبه وتبرده بالعرق .
 وأنايب الدموع داخل حدقة العين تغسل العين وتجلوها .
 وأنايب التشحيم داخل جفن العين تفرز المواد الزيتية لتعطي
 العين تلك اللمعة الساحرة .
 هذا الكم الهائل من السباكة الفنية الدقيقة المعجزة التي تعيش

الصانع العظيم

هل سأل أحدكم نفسه عن كمية السباكة داخل جسمه ..
 مجموع المواسير داخل العمارة التي هي بدنه ، بما فيه من آلاف
 الوصلات والمجارى التي يجرى فيها الدم والبول والطعام
 والفضلات وعوادم التنفس والهضم .
 هل يعلم أن طول مواسير الدم في جسمه تبلغ وحدها ثمانية
 آلاف ميل أى أطول بكثير من المسافة بين القاهرة والخرطوم ..
 مواسير أكثر ليونة من الكاوتشوك ، وأكثر متانة من الحديد ،
 وأطول عمراً من الصلب الكروم ، وفي بعضها صمامات لاتسمح
 بالسير إلا في اتجاه واحد .
 ثم مواسير الهواء ابتداء من فتحة الأنف إلى الحلق إلى القصبة
 الهوائية إلى الشعب ثم الشعبات التي تتفرع وتتفرع وتنقسم حتى
 تصل إلى أكثر من مليون غرفة هوائية في الرئتين .

مائة سنة ولا تتلف .. وإذا أصابها التلف أصلحت نفسها نفسها .

نموذج من الهندسة الإلهية العظيمة التي أهداها الله للإنسان منحة مجانية منذ ميلاده وتولى صيانتها برحمته وعنايته .
فهل أدركنا هذه النعمة وهل قدرناها حق قدرها .
وكثير من الأمراض سببها أعطال وتلفيات في هذه السباكة .
الإسهال والإمساك والغازات وتطبل البطن ، هي أعطال وتلفيات في أنابيب صرف الفضلات والزكام انسداد في منافذ الهواء داخل الأنف .

والناسور هو ثقب في ماسورة الإخراج .
واحتباس البول والمغص الكلوي وآلام الكلى سببها أعطال في أنابيب صرف البول .

إن تركيبات « الصحى » في جسمك هي التي تصنع لك صحتك بالفعل .. بل هي صحتك ذاتها .. إن أى انقباض في ماسورة معوية يساوى صرخة مغص ، وأى ضيق في شريان القلب التاجي يساوى ذبحه ، وأى ضيق في ممرات الولادة يساوى إجهاضاً وأى انسداد في قنوات فالوب يساوى عقماً وأى انسداد في مجارى المرارة يساوى صفراء .

هذا غير مجارى الليمف والدم والغدد ، وهي تتنوع في الجسم الآلاف ، ولكل غدة توصيلاتها وقنواتها ونظامها ودورها في

صناعة الصحة التي نتمتع بها دون أن ندرك أنها عملية تركيبية معقدة تشترك فيها مئات الأجهزة .

إن الصحة التي نشعر أنها مجرد استطراد لأمر عادى واقع .. ليست بالمرّة أمراً عادياً وليست مجرد واقع مألوف ، وإنما هي نتيجة تدبير محكم وثمرّة عمليات معقدة مرسومة بعناية وقصد .
وإنما يحدث المرض حينما تتخلف هذه العناية وهي قلما تتخلف .. فإذا تخلفت فلتشرح لنا أسرارها .. فما عرفنا معجزة الصحة إلا بدراسة المرض ، وما عرفنا معجزة الحياة إلا بالموت .. وبأضدادها عرفت الأشياء .

وفي محارلاتنا البدائية في بيوتنا وعمارتنا التي نبنيها وهي مجرد ماكينات رمزية صغيرة لاتصل إلى واحد في المليون من العمارة البشرية .. غرقنا في « شبرميه » .. طفتت مجارى القاهرة ، وتلوث البحر بعوادم المصانع ، واختنق النيل بالفضلات التي تلقى فيه ، ووقفنا أمام السيوفون التاف تنادى على سبائك ، واختلط الساخن بالبارد والطاهر بالمتنجس ، وفشلنا في صناعة أصغر ماكينت سبائك لاتزيد مواسيره عن بضعة أمتار ، وغرقنا في بانيو نصف متر .. وهذه صناعتنا .. صناعته .

وهذه سباكتنا وتلك سباكته .

وهذه عمارتنا .. وتلك عمارته

وهذا خلقنا .. وذاك خلقه .

الله أحسن الخالقين .
وتحدانا الله بصنعتة المبهرة وآياته الخالدة في عمارة
الشرى :
لئن اجتمعت الإنس والجن عرض أن يأتيوا بمثل هذا
ياتون بمثله ﴿
ينسحب على كل آية من آيات الله .. في الكتاب ..
فاق .. أو في أنفسكم .
كبرى المعجزات .

عالم الوحشة « والغربة »

ماهو أكثر شيء يسعدك في هذه الدنيا ..؟
المال .. الجاه .. النساء .. الحب .. الشهرة .. السلطة ..
تصفيق الآخرين .
إذا كنت جعلت سعادتك في هذه الأشياء فقد استودعت قلبك
الأيدي التي تخون وتغدر وأتمنت عليها الشفاعة التي تنافق وتتلون .
إذا جعلت من المال مصدر سعادتك فقد جعلتها في مالا يدوم
فاللما ينفد وبورصة الذهب والدولار لا تثبت على حال .
وإذا جعلت سعادتك في الجاه والسلطان .. فالسلطان كما
علمنا التاريخ كالأسد أنت اليوم راكبه وغداً أنت مأكوله .
وإذا جعلت سعادتك في تصفيق الآخرين فالآخرين يغيرون
آراءهم كل يوم .

لقد وضعت كل رصيدك في بنك القلق وألقيت بنفسك إلى عالم
الحشة والغربة واستضفت راحة بالك على الأرصفة .. ونزلت في
مناطق قطاع الطرق .. ولن يهدأ لك بال ولن تعرف طعم الراحة
وإن تعرف أمناً ولا أماناً ، ولن تذوق للطمأنينة طعماً ، حتى آخر
يوم في حياتك ، لأنك أعطيت أثمن ماملك .. أعطيت روحك
لعالم الفرقة والشتمات ، ورهنت همك واهتمامك بعائد اللحظة ،
وأمت قلبك بكل ماهو عابر زائل متقلب ، وأسلمت وجدانك
لله وحش الوقت .

وإذا جعلت سعادتك في حب امرأة .. فأين هي المرأة التي لم
تغير ؟ وأين هو القلب الذي لم يتقلب ؟ أين نجد هذا القلب إلا
في الخيال في دواوين الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون والذين
ماتوا في كل واد يهيمون .

سبعون ألف نبي في تقدير بعض العارفين عبروا هذه الأرض
وأغوا أقوامهم نفس الشيء وأعادوا عليهم نفس الدرس ورددوا
الكلمات .

والناس مازالوا على حالهم لا يرى الواحد منهم أبعد من
الآخر .

أرأوا على جاهليتهم الأولى يتدافعون بالمناكب على نفس
الناس يرون حاصد الموت يحصد الرقاب من حولهم
الذين يهرون .

بل هم اليوم أكثر منها وأكثر تهالكا وأكثر تهافتاً على اللاشيء
ويقول لهم القرآن :

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

وفي أنفسهم وأقرب إليهم من حبل الوريد ، غاية الغايات
ومنتهى الأرب ، وقبله المقاصد ومهوى الأفئدة ومتعلق جميع
المعارف .. الحق بذاته .. الله سبحانه وتعالى بنوره الأقدس .
الرحاب الأبهى وشميم الجنة ورفيف الملائكة في نفوسهم ..
أقرب إليهم من حبل الوريد .. أقرب إلى الواحد منهم من
نطقه .

يقول الله للعارف الرباني :

ليس بيني وبينك بين .

إلى هذا المدى من القرب .. وإلى هذا المدى من اللطف ..
يبلغ إيناس الرب لعبده .. ولا غرابة .. ألا تصير النفس
الإنسانية قابلة لتجليات الأسماء الإلهية فيصبح الواحد منا رءوفاً
رحيماً ودوداً كريماً حليماً عفواً سميحاً بصيراً عليماً .

إلى هذا المدى يستوى الرحمن على عرش سماواتنا
الداخلية ، ويكاشفنا بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد .. وهو من
هو .. جامع الكمالات على إطلاقها .. ثم نتولى عنه معرضين
نتدافع بالأكتاف ونتسابق بالمناكب خلف كل زائل وتافه .
ونتكلم عن الحب .. وفي عمق نفوسنا من هو أولى بالحب كل

لاداعى لكل هذا السباق والقتل على السلطة فلن نزداد بذلك

قوة .

أطمئن قلباً أيها المؤمن وأعرض عن هذه الغابة التي يتعارفون فيها الكل بالمخلب والنايب ، قل كلمتك والزم معرفتك واعمل على شاكلتك ، وخض البحر فلن تبتل واعبر أرض الغربة والوحشة فلن تستوحش فلست وحدك فالله معك .. وأينما كنت فهو معك .

لاتقف مع الواقفين أمام فاترينة المال والجاه والنساء الباهرات والحب والشهوة والسلطة وسائر غوايات الدنيا .

فأنت غنى بما في داخلك عن كل هذا .

لا يكن مبلغ همك أن تحب هذه وتلك ، وإنما ليكن همك مجموعاً على الله إهلك ، محبوباً لك مطلقاً ودائماً وأبداً .

وحسبك من المرأة التي تختارها المودة والرحمة وحسن المعاشرة ،

تعلق القلب لا يصح إلا لواحد ، وانشغال الهمة لا يجوز إلا

لواحد هو الله وحده جامع الكمالات .

إنما جعل عرش القلب ليستوى الرب عليه وحده وليس لهذه المرأة أوتلك .. الصباية لاتليق بالعارف الكامل .. ويهو الملك حق للملك وحده وليس لأى عابر سبيل ، والله هو أغنى الشركاء عن الشرك .. وحق على من عرفه حق معرفته ألا يعبد غيره .

الحب .. بل واهب الحب لكل محب ومحبوب وسر الحب في كل محب ومحبوب .. بل عين القيمة في كل ما هو قيم .. وعين الجمال في كل جميل .

ونتولى معرضين نجرى خلف بريق اللحظات ونتشتت ونتوزع وتتجاذبنا الغوايات وتمزق إلى شتات ونموت في وحشة وغربة ومحصولنا مما جمعناه صفر .

والله أقام شريعته غيرة علينا وعلى ما أودع فينا من روحه ورحمة بنا حتى لانضيع ، والشيطان يحاول أن يحجبنا عن هذا الثراء الداخلى حسداً وحقداً على ما فضلنا الله به .. ونحن نختار صحبة العدر على الصديق .. ونستمع إلى العدو ولا نلتفت إلى الصديق ، ونلازم العدو ونهجر الصديق .

وما أكثر ما قتل الأقباط من أنبيائهم وأهل الغفلة من شهدائهم .

وعالمنا اليوم أشد في جاهيلته وأعتى في ماديته من كل ماضى من عوالم ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

في داخلنا الشاطيء والمرساة وبر الأمان .

سند الضمان فينا ولسنا في حاجة إلى التأمين على حياتنا في بنك خارجى لا داعى لكل هذا اللهاث المجنون على الجمع والتملك والاكتمال .. فلن نزداد بذلك أمنا .

أست تقطعه فيصلك ، وتكفره فيرزقك ، وتعصيه فيغفر لك ،
وتهجره فيتودد إليك .. وهو من هو المتعال ذو الجلال والجمال ..
فأين هو من هذه وتلك .. ألا يكفيك أن بابه مفتوح أبداً وعفوه
مناد عليك دائماً ؟

ألا يحرك ذلك كوامن الشوق فيك ؟

ألا يثير فيك من الوجد مالا تثيره هذه وتلك من أشباح ترايبية
فانية ؟

ألا تعود فتتنظر حولك ببصيرة .. وتنظر في داخلك بإلهام ..
قبل أن يجرفك التيار إلى عالم الوحشة وإلى البحر الطام الذي
يتخبطه الشيطان من المس ؟

ألا تغريك هذه الكلمات بلحظة تأمل وبوقفة مع النفس تعيد
فيها النظر .

الفجوة بيننا وبينهم

هو .. دكتوراه في الكيمياء من جامعة أسيوط .. يحمل معه
جلافة الريف وبساطته وطيبته وهي خريجة آداب قسم سياحة
تحمل معها حقيبة كريستيان ديور وتنظر دائماً غرباً إلى باريس
لتأخذ عاداتها وقيمها وموضاتها .. في حين هو ينظر شرقاً إلى مكة
معلق القلب والفؤاد بالكتب القديمة الصفراء والمدائح النبوية
وحلقات الذكر في سيدي أبو العباس .

وهو في زيارة للسويد والنرويج مدعواً في مؤتمر علمي ..

وهو يصحب زوجته في شهر عسل ..

وهما يهبطان معاً درجات الفندق الفخم في ستكهولم .. وكلما
مر بهم تزيل أوما برأسه في تحية .. فتضغط على ذراعه هامسة .
- رد على التحية بإيماءة برأسك أنت الآخر .. أتري كم
هم مؤدبون .. تعلم .. إذا حييتهم بنحية فردوا بأحسن منها ..

أنرى النظافة حولك ، كل شىء حولك يلمع .. والأرض كأنها
مرآة .. المواعيد بالدقيقة والثانية .. الكلمة واحدة كأنها ميثاق ..
لاغش ولا احتيال ولا مكر ولا تعقيد .. المرأة هنا حرة رشيدة
مستقلة الإرادة ، تملك مفتاح عربتها ومفتاح شقتها وتخوض
الحياة بلا خوف وتختار زوجها في حرية .. وتعمل في أى مهنة
تحب .. حارسها ضميرها وحده .. يدها مع يد زوجها على دفة
القيادة .. لا رياسة لأحد على الآخر ولا تحكم ولا استبداد .. لها
نصف ما يملك إذا افترقا .. هكذا يضمنون للمرأة مستقبلها هنا
ويؤمنونها من غوائل الدهر وطغيان الرجل .. دستور الزوجية
احترام متبادل ومساواة في الحقوق وثقة وحرية من كل طرف في
الآخر ولا تدخل ولا فضول .. ولا مساءلة .. ولا محاكمة .. أين
كنت بالأمس .. ولماذا جئت متأخرة ؟ تذكرة طائرتها في جيبها
وجواز سفرها في حقيبتها .. تسافر إلى آخر الدنيا وحدها ..
حرة .. رشيدة مستقلة .. حارسها ضميرها وهذا يكفي .. انظر
حولك وتعلم .. هذه هى القيم التى تحتاجها في مصر .. لنصنع
مصرًا جديدة وحضارة جديدة ومدنية جديدة هذه فرصتك
لتغتسل من أتربة الريف وتجدد شباب عقلك .. وتتسرب هذه
القيم العصرية .. لا أحب أن أصادر على تفكيرك .. ولكنى
أطالبك فقط بإعادة النظر وعدم الرفض القورى لأى جديد ..
لا أحبك أن تشيح بيدك وتقول كلمتك التقليدية .. هذه دولة

الكفر .. فأين الكفر فيما ترى .. هل النظافة كفر .. هل الأمانة
كفر .. هل الوفاء بالوعد كفر .. هل النظام كفر .. هل العلم
المتقدم كفر .. هل الصناعة كفر ؟
ومرت امرأة بيدها كلب وأومات برأسها في تحية فرد صاحبنا
بإيماءة أخرى من رأسه .. فضغطت صاحبتنا على يده في حب
وقالت وهى تلفت نظره إلى الكلب .

- أترى أصابع الكوافير كيف صفت شعر هذا الكلب ..
والفيونكة الحمراء الجميلة .. هل العطف على الحيوان الضعيف
كفر .. هل رأيت المستشفى الأنيق أمام الفندق .. إنه مستشفى
للكلاب ودار حضانة للكلاب تترك المرأة كلبها في الصباح ثم
تعود لتأخذه في المساء .

قال الرجل الريفى وهو يهز رأسه غير مصدق .
- شىء عجيب .

- هل تعلم أن هناك أكثر من عشرين صنف لحوم معلبة
للكلاب .. وأن المحل يترك لك الحرية لتعرضها على كلبك
ليجربها ويختار منها ما يحب .

قال الرجل الريفى وهو مازال يهز رأسه .

- شىء عجيب .. إذا كانوا يصنعون هذا بالكلاب فماذا
يصنعون لبني آدم .

- سوف ترى يا عزيزى .. لا تتعجل .

- إذا كان هذا مقام الكلب في الأسرة .. فماذا يكون مقام الأسرة في المجتمع .

- سوف ترى بنفسك الليلة .. ألسنا مدعون معاً إلى تلك العائلة السويدية ؟

- نعم .. نعم .. لقد دعانا الدكتور كرافت على فنجان شاي لحدثه عن مصر وعن أخبار مصر .. فهو عالم في المصريات كما تعرفين .

- بل نريده أن يحدثنا هو عن بلاده .. وعن المعجزة الأوربية .

- نعم .. صدقت .

وفي المساء كان الدكتور كرفت يمد يده ليصافحها في حرارة وهو يقول :

- أخيراً جاءت مصر إلينا .. أخيراً أصافح أحفاد حتشبوت وأختاتون يدا بيد .

قال الرجل الريفى :

- لا أظن فقد اختلطت الأنساب كثيراً في بلادنا يا عزيزى الدكتور بقدر ماتعاقب عليها من فرس وروم ومقدونيين وهكسوس وعرب وإنجليز وفرنسيين .. لا أظنك اليوم تجد حفيداً واحداً حقيقياً لحتشبوت أو أختاتون .. لن تجد هذا

الحفيد إلا في مقابر تل العمارنة في تابوت سرق كل ما فيه .. ولم تبق إلا الجنة ..

قال الرجل وهو يتنهد أسفاً .

- صحيح .. هذا مؤسف .. لم يبق لنا إلا تاريخ ومعابد

وبرديات هيروغليفية .

ورشف الدكتور كرافت رشفة هادئة من فنجان الشاي .

- لو كنتما هنا أمس الأحد .. لسعد أبواى بكما كثيراً .. فهما

مثلى يجبان مصر كثيراً ويتنسمان أخبارها .

قال الرجل الريفى .

- وأين هما ياترى ؟

- هما عجوزان لطيفان .. وهما في هذه السن التى يصعب

فيها التفاهم والتواصل بينهما وبين باقى الأسرة وحتى بينهما وبين

بعضهما .. ولهذا انتهى بهما المطاف إلى دار للمسنين .. لكل منها

غرفة منفصلة وكل منها يقطع النهار فى حل الكلمات المتقاطعة

وشرب النبيذ والاستماع إلى التلفزيون ومشاهدته .. وهذا شأن

الكبار هنا حينما يتقدم بهم السن .

قال الرجل الريفى فى استغراب .

- والصغار .

- بعد السابعة عشرة يذهب كل واحد وشأنه .. لى ثلاثة

إخوة وأختا رابعة تفرقوا فى القارات الخمسة وتفرقت بهم

المصائر .. الأخ الأكبر تزوج من امرأة بوزية في كمبوديا ،
والأصغر قطعت ساقه في حادث وهو يعمل بارمان في كلكتا ،
والأخ الأوسط يشتغل في مصنع سلاح في جنوب أفريقيا .. أما
الأخت فقد تزوجت من فيتنامي ولم تنجب .. ثم افترقت عن
زوجها .. وأنجبت ولداً تكرر له الآن كل وقتها وتعمل مدرسة
ببانو .

- وزوجها .

- إنها لم تزوج بعد الفيتنامي .. لقد أنجبت ولداً بعد قصة
حب ، وكما تعلم هذه الفورات العاطفية تنتهي إلى لا لاشيء
وتبدأ المشاكل .. وهذه مسائل عادية تحدث الآن كثيرا .
- ألا تلتقون ؟

- عبر بطاقات الكرسماس وهدايا عيد الميلاد كل عام .
ودخل الكلب وكانت حول بطنه ضمادة .
واحتضنه الدكتور كرافت في حنان بالغ .. وراح يربت على
رأسه ويقبله .

- المسكين .. عملنا له بالأمس رسم قلب كهربائي وفحص
بالأشعة وبالأمواج فوق الصوتية واتضح أن عنده ورم
سرطاني .. وقام الجراح منذ أسبوع باستئصال الورم بنجاح ..
صدقني لقد حزنت من أجله كثيرا .. ولم أذق طعم النوم منذ
أيام ..

قال الرجل الريفى وهو يقلب كفيه في عجب .
- هذا شيء مؤسف فعلا .. هذا قدره .

وراح الدكتور يسأل صاحبنا ماذا يعنى بكلمة القدر .. وقال
إنه سمع الشرقيين يتحدثون كثيراً عن القدر .. ويلاحظ أنهم
يدسون هذه الكلمة في كل شيء .. وهذا أنت تدسها حتى في
شئون الكلاب .. صدقتى أنا لأفهم .

وأخذ الرجل الريفى يتكلم في إسهاب عن الإيمان بالله
وبالقدر .. وأن الله بيده ناصية كل الخلق وما من دابة إلا هو آخذ
بناصيتها .. سواء كانت بهيمة أو كلباً أو حشرة .. وأنه مامن
ورقة تسقط إلا يعلمها .. وما من رطب ولا يابس إلا عنده في
كتاب .

وقال الدكتور شاخت في براءة « شديدة » .
- ولكن أين هو ؟

- من ؟

- الله الذى تقول .

فسكت الرجل الريفى وانعقد لسانه دهشة من السؤال
الفجائى ، ثم عاد يقول ببطء
- الله لا يقال عنه متى ولا أين .. لأنه هو الذى خلق المتى
والأين .. هو الذى خلق الزمان والمكان ولا يخضع لهما كما
نخضع .. هو فوق الأين .

فبدأ على الدكتور شاخت أنه لا يفهم ، ولكنه قال في احترام

شديد :

- ألا يمكن أن نتكلم كلامًا أكثر وضوحًا وواقعية .. ألا يمكن أن تقول لي عن الله شيئًا ملموسًا .. صدقتني أنى في دهشة من إيمانكم العميق أيها المصريون .. إيمان بطول سبعة آلاف سنة .. إنه شيء عجيب يدهشني .. منذ سبعة آلاف سنة وأنتم تبنون للموت ولا تعيشون للحياة ، ولكن لما بعد الحياة .. وكأنما ، أنتم متأكدون تماما من كل شيء ألا يدهشك هذا .. من أين لكم بهذا اليقين بأن بعد الموت شيء .. لكم أتمنى أن أرى الله كما ترونه « فقال الرجل الريفى فى بساطة :

- إنى لا أرى غيره .. أراه فى تفتح الزهرة وابتسامة الوليد وأراه فى الصواعق وأرى مشيئته فى حركة التاريخ ، وأرى يده فى قبضة الجاذبية التى تضم شمل الكون وتمسك بالمجرات وتحمل السموات بلا عمد .. وأراه أقرب إلى من نفسى بل أقرب إلى من نطقى . وأراه فى العباء خلف كل شيء .. فى غيب الغيب .. لا يوصف ولا يجد .. سبحانه ليس كمثلته شيء .

وحاول أن يبحث عن كلمات تقول أكثر وتفصح أكثر وتجسد أكثر .. كلمات يعبر بها الفجوة الهائلة بينه وبين محدثه ولكن لم يجد .

كانت الفجوة كبيرة .. فجوة بين حضارتين .

١٦٤

حضارة لا تؤمن إلا بما ترى وتلمس وتحس وتسمع .
حضارة مادية تبدأ من المادة وتنتهى إلى المادة وتشيد من المادة معجزات وخوارق واختراعات وسفن فضائية وقنابل وتصنع بها الدمار والعمار .

وحضاره أخرى تواقه حاملة منتلعة إلى الغيب تتصنت بالقلب والروح على ما لا يرى وما لا يسمع .. وتعبّر المادة أبدًا ودائما إلى ما وراءها .

وسكت الرجل الريفى ولم يجـ كلاما يقوله ليعبر به الفجوة وأخذ يعيد مقال وكأنما يخضب نفسه .

- إنى لا أرى غيره .. لا أرى إلا الله . سبحانه لا سواه .. قال الدكتور كرافت .

- إنى لا أملك إلا أن أحترمك .. ولكنى لا أفهمك
وفى ذلك المساء فى الفراش .. كان الرجل الريفى يحدث زوجته وهو يخبط كف بكف

- أرايت .. إنه لا توجد .. لقد انفرط كل شيء ..
البنات تحمل سفاحا ، والأخوة سفوا فى أركان الأرض ليواجه كل منهم مصيره بلا عون ريبلا سند ، والأب والأم منبوذان يعيشان وحيدين فى دار للمسنين .
بم يبق إلا الكلب أقاموه صنما بديلا يبذلون له الود والحب حنان والعبادة التى خلت منها الحياة .. ويحاولون ان يخلقوا بـ عنى والحكمة التى سلبوها كل

١٦٥

شيء .. إن كل ماتشاهدينه في الفندق من تحيات وبجاملات
وأداب مائدة وسلوك مهذب ولياقة .. كلها تعبيرات فارغة
لا تدل على شيء ولا تحتوى على مضمون ... إنها مجرد حياة
تلهت وراء متع لحظية .. ثم موت ثم تراب ثم عدم .. ثم
لامعنى .. ولا حكمة .. وإنما عبت .

ولم يعجب زوجته الكلام وأعطته ظهرها .. وقالت كالعادة :
- لا تتعجل في الحكم .. ولا تستخرج حكماً عاماً من لقاء
عابر .. انظر حولك .. إنك في عالم كعرائس الخيال أبهة ونظافة
وأناقة وجمالاً وعلماً وصناعة »

قال في هدوء وقد أعطاها ظهره هو الآخر :
- كل هذا يمكن أن ينهدم في لحظة .. حينما تنهدم القيم التي
تسك به .

كل هذا يصبح مثل النقش على الماء :
قالت في مرارة .

- وهل عندنا في مصر قيم .. هل عندنا أخلاق ؟

- صحيح لقد أصابت عدوى الانحلال الكثيرين في بلادنا ..
وصحيح عندنا فساد .. ولكن مازال عندنا أولو بقية من أهل
الخير يعرفون الله و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون
الليل ويسبحون النهار .. وهؤلاء هم عمد الأرض وأركان الدنيا
يحفظ الله الدنيا من أجلهم وبدونهم لا يعود لها بقاء .

قالت وهي مازالت تنظر غرباً وقد أعطته ظهرها .
- بل أركان الدنيا هنا .. ولكنك ترفض أن تراها .. وأعمدة
الحياة حولك ولكنك تنكرها .. وناطحات السحاب تنطح السماء
وتصنع الأقدار للألوف .. والعقول الألكترونية تدبر المصائر
للملايين ، وما نسميه انحلال الأسرة هو روح الحرية ..
والمغامرة .. ولكنك لا تريد أن ترى ولا تريد أن تغير من نفسك
شيئاً .

قال وهو مازال يعطيها ظهره وينظر شرقاً .

- نسيت أن صانع كل هذا العمار .. ترك نفسه خراباً .. وأنه
يوشك أن ينتحر وأن يقتل نفسه بما صنع .. وأن عمد الدنيا في
نظرك وأركان الأرض يوشكون أن ينقضوا على بعضهم البعض
بالأسلحة الذرية والقنابل النووية .. وأنهم لوثوا من حولهم
الفضاء والماء والهواء .. كما لوثوا عقولهم بالخمور والمخدرات ،
ولوثوا أرواحهم بالكفر والجحود .. وأن ماترينه براقاً حولك هو
الغرور ومتاع الغرور .. وخيال اللحظة .. ونشوة اللمحة
البارقة .. واقترنى التاريخ .. وانظري خلفك .. بل تحت
قدميك .. بل في التراب تحتك .. حيث اندثرت أمم
وأمبراطوريات .. وحيث انتهى عماليق طاولوا الشمس وخرقوا
السماء .

ولكنها لم تنظر إلى وراء ، ولم تلتفت إلى التراب تحت قدميها

وإنما ظلت ناظرة مبهورة دائما إلى غرب .. على حين ظل هو
شاخصا إلى الشرق .. إلى مطلع الأنوار .. وقد أعطى كل منهم
ظهره للآخر .. وبينها خيط رفيع .. رفيع .. هو عقد زواج ..
يوشك أن ينقطع .

نهر الكوثر

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾

هذا خطاب من الله لنبيه محمد ﷺ ، وهو أيضا خطاب من
خلاله لنا جميعا . والكوثر هي صيغة المبالغة التي هي فوق الكثير
والأكثر فهناك الكثير ثم الأكثر ثم الكوثر وهي الغاية من الكثرة
من العطايا والمنح والمواهب والنعمة التي أفاضها الله على الإنسان
الكامل والتي هي في الوقت ذاته امكانية باطنة في كل إنسان
يستحقها وراثه عن الكامل إذا سار على قدمه .
والآية لها معان متعددة بالنظر إلى الكمال الجسدى والكمال
النفسى والكمال الروحى الذى هو امكانية متاحة لكل إنسان إذا
اجتهد فى نواله . وإذا نظرنا إلى الجسد وإلى البناء المادى
للإنسان ماذا نرى ؟ نرى خالق قد أعطى الانسان أكثر من
سبعة أضعاف احتياجاته فهو قد أعطاه ريتين مع أن بإمكانه أن

يعيش بربع رثة واحدة وأعطاه كليتين مع أنه بإمكانه أن يعيش بأقل من ثلث كلية واحدة ، وأعطاه كبداً ولو تليف سبعة أجزاء من ثمانية من هذا الكبد لاستطاع أن يعيش بالباقي .. أما الجلد فقد أودع الله فيه إمكانية التجدد إلى مالا نهاية .. أما الدم فقد أودع فيه إمكانية التجدد بمعدل ستين مليوناً من الخلايا في الساعة .

وقد جاءتنا الأنباء الطبية أخيراً بأن الإنسان يستطيع أن يعيش بخمسة في المائة من مادة مخه وهذا ما يحدث بالفعل في الحالات التي تعيش من مرضى التمدد المائي لغرف الدماغ ، وأحياناً يضغط هذا التمدد المائي على المخ فيتلف ٩٥٪ من مادته ولا يبقى للمريض إلا ٥٪ من مخه ، ومع ذلك يعيش المريض فوق في عمله ودراسته .. وتلك معجزة .

ويقول علماء النفس والأعصاب إننا نستخدم عشرة في المائة فقط من إمكانات جهازنا العصبى .

والكلام خطير والسؤال الذى يترتب عليه . ماذا يمكن أن يصبح الإنسان لو أنه استخدم طاقات جهازه العصبى كلها إنه سوف يصبح عملاقاً في مواهبه وقدراته الفكرية والعصبية وهذا هو ما نرى جانباً منه في بهلوان السيرك .. وما يستطيع أن يفعله بيديه ورجليه .. وأحياناً بأسنانه التى يجربها أتوبيساً وهى أمثلة على طاقات مادية كامنة يمكن تدريبها ، وفي عقولنا

طاقات أخرى كامنة أخطر بكثير من هذه الطاقات التى دربها بهلوان السيرك .

وما نقرؤه عن وسطاء يستطيعون تحريك عقارب الساعة دون لمسها أو ثنى قضيب من الحديد بمجرد تركيز الإرادة عليه أو قراءة الخواطر على البعد وما نعلمه من غرائب التنويم المغنطيسى . وما بلغنا من كرمات أهل الشفافية والصلاح من الأولياء . كلها مجرد أمثلة أخرى لطاقات كامنة فى عقولنا ونفوسنا ، فلا غرابة إذا قيل لنا إن محمداً ﷺ وهو الإنسان الكامل كانت لديه القدرة على الاتصال بالملك جبريل ، وأنه كان يتلقى عن ربه وحياً وأنه أسرى به جسداً وروحاً إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات العلى حتى بلغ سدرة المنتهى وأشرف على قاب قوسين من لقاء ربه . فذلك أمر لا يستغرب على من بلغ الغاية من الكمالات الذاتية فكان الرجل الأمين والصديق الوفى والمقاتل الشجاع والقاضى العادل ، والمتكلم البليغ والزوج المحب والأب الحنون والإنسان القدوة والقائد الحكيم والنبي صاحب الدعوة .. وأثنى عليه ربه قائلاً :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

فأى غرابة فى أن يكون هو النموذج والمثال وصاحب الكوثر

بالفعل .

وبقدر نصيب المثال والنموذج وبقدر حظه يكون حظ كل منا

إذا اجتهد في تكميل ذاته .. وكل منا وارث بقدر اجتهاده ..
ألم يقل لنا العلم الثابت إن الواحد منا يعيش بعشرة في المائة
من مواهبه وملكاته وأن تسعين في المائة من هذه الملكات معطل
أو كامن أو غير مكتشف .

لقد نقل الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من اليمن
إلى فلسطين في طرفة عين .. واستطاع سليمان أن يكلم النمل
والطير وأن يستمع إلى تسبيح . الجبال ، وأوتى الطلسم الذي
يحكم به مملكة الجن ويسخر به مردة الشياطين ، كما أوتى ذو
القرنين الأسباب التي يفتح بها مشارق الأرض ومغاربها ، كما
أعطى عيسى القدرة على إحياء الموتي وعلى شفاء العمى والبكم
والصم .

وذلك بعض الكوثر وبعض الكامن من المواهب
والاستعدادات في الإنسان الكامل الذي خلقه الله في أحسن
تقويم ونفخ فيه من روحه فأصبح قابلاً لما لا نهاية من الفيوضات
الربانية ، وذلك كوثر الدنيا ، وهو غير كوثر الآخرة الذي قال
عنه النبي ﷺ إنه .. حوض من شرب منه لا يظمأ بعد شربته
أبداً وهو حوض اختص به الله محمداً وأمه وهو من الأسرار
الغيبية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..
فهنيئاً لمن ورد ذلك الحوض .. وهنيئاً للقلة المسلمة المؤمنة بما
وعدها الله ورسوله .

أما الكثرة الكثيرة التي قضت على نفسها بالحرمان بما أسدلت
على عيونها من حجب البعد والغفلة وظلام الخطايا والذنوب
وركام الكبرياء والشرك والكفر فإن الله لم يعلق أمامها باب
المغفرة ولم يسد باب الرحمة وإنما فتح لها نوافذ التوبة على
مصاريعها حتى غرغرة الموت .

ألا يحرك فينا هذا الكرم .. الحب الذي ليس كمثله حب
لنشمر السواعد ونعمل ونجتهد ليكون لنا الحظ في ميراث
الكوثر .. بل البعض القليل من هذا الكوثر .. بل قطرة واحدة
من نهر الكوثر .
وإن نهر الكوثر ليجرى فينا .. أقرب إلينا من حبل الوريد .
وأنه ليس عنا بعيد .

وظل يدعو أراذل الكفار قرابة الألف عام ، تم استقل سفينته مع الصحبة القليلة المؤمنة وركب الطوفان ، ويوسف عليه السلام صارع الفتنة والغواية في قصر العزيز ، وصبر على السجن كما صبر من قبل على غدر الإخوة وعلى عذاب الحب ، حتى جاءه الحكم والملك ، وعيسى عليه السلام قال لاتباعه : « ماجئت لألقى سلاماً بل سيفاً ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ختم النبوة بسيرة حافلة بالكفاح والمعارك والغزوات ، وكان يعبر لهيب الصحراء في سبع ليال من الزحف إلى تبوك وقد جاوز الستين من العمر .

الدين ليس فيه هذا النوع السلبي من الطيبة .. وليس فيه الاستسلام والخنوع والخضوع والاستكانة والذل .. والذين امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصوفاً أخطئوا فهم التصوف أيضاً ، وانحرفوا به عن نقائه الإسلامى ، فالتصوف الذى لا ينهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب .

وإذا كان الاستعمار قد شجع في الماضى بعض الطرق الصوفية التى تروج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة ، فإن الكثير من الصوفيين الأصلاء لم ينخدعوا ومن هؤلاء خرج جيش السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسى فى الشمال الأفريقى وقد حمل المصحف فى يد والسيف فى اليد الأخرى .

ولا أعرف ما هو النموذج القرآنى لهذا النوع السلبي من

الإسلام فتوة

هناك نوع من الناس لانفع فيه ولا ضرر منه .. نوع يمشى إلى جوار الحائط ولا يشارك فى شيء .. نوع متواكل سلبي لا منتمٍ لامبالٍ وقد تعارفنا على أن نطلق على هذا النوع اسم «الرجل الطيب» لأنه يعيش فى حاله وقد كف عن الناس خيره وشره وطوى صدره على همومه وآثر ألا يزعج أحداً .. وتصور البعض خطأ أن هذا الرجل هو نموذج المسلم المتدين الصالح . وقد فهم هؤلاء الناس الإسلام فهماً خاطئاً .. فالإسلام ليس ضعفاً بل فتوة وإيجابية .. الإسلام ليس خنوعاً وخضوعاً وسلبية بل موقفاً ومبادرة .. وإبراهيم النبي عليه السلام حطم الأصنام وواجه بطش النمرود ، وداود عليه السلام حارب جالوت وانتصر عليه ، وموسى عليه السلام واجه جبروت الفرعون وحده ، وقاد اليهود فى رحلة التيه فى سيناء ، ونوح عليه السلام صنع السفينة

الطيبة .. لعله هايبيل الذى رفض أن يدافع عن نفسه حينما بسط
أخوه قابيل يده ليقتله فقال الأخ الطيب :

﴿ لتن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك
لأقتلك ﴾ (٢٨ .. المائدة)

فآثر أن يموت مظلوما على أن يدفع عن نفسه الظلم ، وترك
القصاص لله .. وجعلها سنة للضعفاء من بعده .. ولكن هايبيل لم
يرد يده عن ضعف ، بل عن قوة وكان بإمكانه أن يبطش
بأخيه ، وإنما اختار التنزيه فى اللحظة الفاصلة فنزه يده أن تريق
دم أخيه وتلك ذروة فى القوة .. فعل ذلك خوفاً من الله وليس
خوفاً من أخيه ، وهو نفس المعنى المراد من كلام عيسى عليه
السلام فى الإنجيل .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له
الأيسر .. فما أراد المسيح بكلامه أن يصبر المظلوم عن ضعف ،
بل يصبر عن قوة ويعف عن قدرة .

وهو نفس مذهب غاندى « الالهسا » أى عدم رد الأذى
بمثله .

وقد انتصر غاندى على الإنجليز بهذا المذهب وأخرجهم من
الهند .. لأن مفهوم المذهب كان القوة والقدرة وليس الاستكانة
والذل .

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ هم الأقوياء
وليسوا الضعفاء والحديث يوضح هذا المعنى فيقول : « المؤمن

القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير « فهو لم
يحرم الضعفاء نصيبهم من الخير ولكنه قال إن المؤمن القوى أحب
إلى الله .

والقوة مطلوبة ولاشك فى هذا العصر المادى الذرى الذى
أوشك أن يتصارع فيه العماليق .. والضعف سوف يكون مهلكاً
قاضياً على أصحابه .

وفى مواجهة الصلف الاسرائيلى ومظاهرات القوة التى
تباشرها إسرائيل فى البر والبحر والجو .. لا يصح للعرب أن
يقفوا هذا الموقف الضعيف المفكك المتهاك .. وإنما لابد من
وحدة وإعداد واستعداد ، وجمع للشمل وشحن للهمم وتسمير
للسواعد ورفع للقدرات العسكرية للذروة .

إن مفهوم « الرجل الطيب » بمعنى الرجل الذليل المستكين ،
يجب أن يشطب من القاموس العربى ، ومن القاموس الدينى
تماماً ، فهو ليس مفهوماً دينياً وليس مفهوماً إسلامياً ، بل هو
مفهوم استعمارى غسلوا به مخنا وروجوه بيننا خلال سنوات
الاستعباد والاحتلال .. وهو اختيار الكسالى والجبناء والضعفاء ..
وعلىنا أن نفيق على فجر جديد ومفهوم جديد يلائم العصر

الجديد والجاهلية الجديدة ذات المخالب والأنياب .
وفى عصر الذئاب لا يمكن أن نكون دجاجاً وحملانا ، والغد

الذى نسير إليه سوف يكون غداً مخيفاً .. غداً لا إختيار فيه :

إما أن يكون الواحد منا آكلاً أو يكون مأكولاً . ولا طريق
ثالث .

إنهم في إسرائيل يردون على اللطمة بقنبلة ناسفة ، وإذا
أصاب رصاص القناصة فرداً واحداً منهم قاموا بتمشيط الجبل
كله ونسفوا المنازل وهدموا البيوت وسووها بالبولدوزرات . لم
يعد قانونهم السن بالسن والعين بالعين كما تقول التوراة .. ولكن
السن بطقم الأسنان كله . والعين بألف عين .. والرأس بأمة ،
ويسمون ذلك استراتيجية الردع . وهم ولاشك تعلموها من
النازية . وفي مواجهة هذه الاستراتيجية لاتصلح فلسفة « الرجل
الطيب » ولا إدارة الخد الأيسر بعد الأيمن .

ولم يردع بغى النازية إلا بغى أشد منه ، ولن يصلح للباس
الشديد إلا بأس أشد منه ، ولست أدق طبول الحرب ولا استنفر
لقتال .. فالوقت غير مناسب والرياح السياسية غير مواتية ،
والعرب اشتاتاً لانفير لهم ولا عزم ولا كلمة . وإنما أقول ..
اجتمعوا وتشاوروا واستعدوا واحتشدوا ، اخلعوا عباءة الرجل
الطيب ، انفضوا عنكم المسكنة .

ولأن يأتيكم الموت في كرامة أفضل من أن تكرهوا عليه في
مذلة ، وأن الموت لآت ياسادة شئتم أم أبيتم . واذكروا لى اسم
رجل واحد هرب من الموت منذ آدم .

فهرس

صفحة	
٣	الدين .. ماهو ؟؟
١٠	الصلاة
١٦	الصيام
٢٠	الزكاة
٢٧	الحج
٥٥	كلمة التوحيد .. ماذا تعنى
٦٦	الحب
٧٢	المرأة
٧٧	احترام الجسد
٨٢	الشريعة متى .. وكيف ؟
٨٩	عن التصوف
١٠٧	الفردية والتفرد
١١٤	الدين والعلم
١٢١	الملك والملكوت .. وأنا

صفحة

١٣٠	عن التطور
١٤٠	بحث في ألفاظ القرآن الكريم
١٤٦	الصانع العظيم
١٥١	عالم الوحشة « والغربة »
١٥٧	الفجوة بيننا وبينهم
١٦٩	نهر الكوثر
١٧٤	الإسلام فتوة